

إيضاحُ المَرَام

من رسالَة الأشعرىِّ الإمام

هو شرحٌ وافٍ من غيرِ اختصارٍ مُخِلٍّ
لرسالةِ استحسانِ الخَوْض فِى علمِ الكلام
للإمام أبِى الحسنِ علِىِّ بنِ إسمٰعيلَ الأشعرَىِّ
يُبْرزُ فوائدها ويوضِحُ خصائصَها ومعانِيَهَا
ويُبَيِّنُ ما قد يَخْفَى مِمَّا قُصِدَ بِمَبَانِيها

عمله
الفقير إلى عفو ربِّهِ
سمير بن سامى ابن القاضى
غفر الله له

شركة دار المشاريع

إيضاحُ المَرَام

من رسالةِ

الأشعريِّ الإمام

هو شرحٌ وافٍ من غير اختصارٍ مُخلٍ
لرسالةِ استحسانِ الخوضِ في علمِ الكلامِ
للإمامِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ إسمٰعيل الأشعريِّ
يُبرزُ فوائدَها ويوضحُ خصائصَها ومعانيَها
ويُبيِّنُ ما قد يخفى ممَّا قُصِدَ بمبانيها

عمله
الفقير إلى عفوِ ربِّهِ
سمير بن سامي ابن القاضي
غفر الله له

شركة دار المشاريع

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٧ر

شركة دار المشاريع

بيروت - لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون، بناية الإخلاص

تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٥٢٨٣ - ١٤ بيروت - لبنان



ISBN 978-9953-20-993-7



email: dar.nashr@gmail.com

www.dmcpublisher.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمينَ له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسنُ وصَلَّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى ءَالِهِ وصَحْبِهِ الطيبينَ الطاهرينَ ۝

أما بعدُ فهذا حلٌّ مختصرٌ وشرحٌ مُوجَزٌ على **(رسالة استحسان الخوض فى علم الكلام)** للإمام سيف السنة وناصرها وقامع البدعةِ وقالِعِها أبِى الحسنِ عليّ بنِ إسمـٰعيلَ الأشعريّ رضِىَ اللهُ عنهُ سميتُهُ إيضاح المرام من رسالةِ الأشعريّ الإمام المسماةِ استحسان الخوض فِى علمِ الكلامِ وهِىَ رسالةٌ لطيفةٌ مُلِئَتْ فوائد وضُمِّنَتْ فرائد وقُيِّدَتْ فيها أوابد كيفَ لا ومصنفُها وحيدُ زمانِهِ وفارسُ ميدانِهِ الذِى لا تُنكَّسُ رايتُهُ ولا يُشَقُّ غُبارُهُ لَمْ يَسْبِقْنِى أحدٌ فيما أعلمُ إلى إظهارِ محاسنِهَا ولا لتجليةِ عرائسِ معانِيهَا ولـٰكنْ أمرَنِى شيخِى الهررىُّ رحمه الله قديمًا بذلك فأقدمتُ عليه طاعةً له وفرقًا من مخالفةِ أمرِهِ ثم بعدَ زمانٍ طلبَ مِنِّى بعضُ الأصدقاءِ حفظَهُمُ اللهُ تعالى أنْ أشرحَ لَهُمْ هذه الرسالةَ فرجعتُ إلى تعليقاتِى القديمةِ فزدتُ فيها وحذفتُ وأخرجتُ منها هذا التقييدَ طلبًا لِرِضا اللهِ تعالَى وطمعًا فِى ثوابِهِ راجيًا مع ذلك دعوةَ صالِحٍ يُنْعِشُنِى اللهُ بها ويَنْفَعُنِى ويَرْفَعُنِى ۝

وُلِدَ الإمامُ رحمه الله سنة ستين ومِائَتَيْن فِى البصرة وعاش فيها رَدَحًا من الزمان ثم دخلَ بغدادَ وتُوُفِّىَ فيها سنة أربع وعشرين وثلاثِمِائَةٍ على الراجحِ ۞ والدُهُ إسمٰعيلُ هو ابنُ أَبِى بشر إسحق ابن سالم بن إسمٰعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبى بُرْدَةَ واسمه عامر بن أَبِى موسى الأشعرىِّ صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهلُ بَيْتِهِ كما هو ظاهرٌ سُنِّيُّون لٰكنَّه رحمَهُ اللهُ تعالى كانَ على مذهَبِ المعتزلةِ مدةً من حياتِهِ تلميذًا لِمُحمد ابن عبد الوهاب الجُبَّائِىِّ مِنْ رؤوسهم وكان زوجَ أُمِّهِ فيما ذكرَهُ ابنُ الوردِىِّ إلى أن بَيَّنَ اللهُ لَهُ فسادَ مذهبِهِمْ فتابَ رَضِىَ اللهُ عنهُ بعدما عرَضَتْ له أمورٌ وفَّقَهُ اللهُ بسببها للرجوعِ والإنابةِ فمن ذلك ما رواه الحافظُ أبو القاسم ابنُ عساكر فِى تبيينِ كَذِبِ المُفْتَرِى أنَّ أبا علِىٍّ الجُبَّائِىَّ كانَ ضعيفًا فِى المناظرةِ فكان إذا أرادَ أنْ يُناظرَ إنسانًا أرسلَ أبا الحسنِ الأشعرىَّ لينوبَ عنه فحضرَ يومًا مجلِسًا نائبًا عن الجُبَّائِىِّ فناظره إنسانٌ فانقطعَ الأشعرىُّ فِى يَدِهِ وكان معه رجلٌ من العامةِ فنثرَ عليه لوزًا وسُكَّرًا فقال له الأشعرِىُّ ما صَنَعْتَ شيئًا خَصْمِى استظهرَ عَلَىَّ وأوضَحَ الحُجَّةَ وانقطعتُ فِى يدِهِ كان هو أحقَّ بالنِّثَار مِنِّى ثم إنَّهُ بعدَ ذلك أظهرَ التوبةَ والانتقالَ عن مذهبه اهـ ومنها ما اشتهرَ أنه ناظرَ شيخَهُ الجُبَّائىَّ فِى قولِ المعتزلةِ بوجوبِ مراعاةِ الأصلح للعبدِ على اللهِ فَخَصَمَهُ وتَبَيَّنَ له عجزُهُ فإنَّه سَأَلَ الجُبَّائىَّ فَقَالَ أَيُّها الشَّيْخُ

مَا قَوْلك فى ثَلَاثَة مُؤمنٍ وَكَافِرٍ وصبيٍّ فَقَالَ المُؤمنُ مِن أهل الدَّرَجَات وَالكَافِر من أهل الهَلَكات والصبىُّ من أهل النجَاة فَقَالَ الشَّيْخُ فَإِنْ أَرَادَ الصبىُّ أَنْ يَرْقَى إِلَى أهل الدَّرَجَات هَل يُمكن قَالَ الجبائىُّ لَا يُقَال لَهُ إِنَّ المُؤمن إِنَّمَا نَالَ هَذِه الدرجَة بِالطَّاعَةِ وَلَيْسَ لَك مثلهَا قَالَ الشَّيْخ فَإِن قَالَ التَّقْصِيرُ لَيْسَ منى فَلَو أَحْيَيْتَنِى كنتُ عملتُ من الطَّاعَات كعمل المُؤمن قَالَ الجُبَّائىُّ يَقُول لَهُ الله كنتُ أعلمُ أَنَّك لَو بقيتَ لَعَصَيْتَ ولَعُوقِبْتَ فَرَاعَيْتُ مصلحتَكَ وَأَمَتُّكَ قبل أَنْ تَنْتَهِىَ إِلَى سنِّ التَّكْلِيف قَالَ الشَّيْخُ أبو الحسنِ فَلَو قَالَ الكَافِر يَا ربِّ علمتَ حَالَهُ كَمَا علمتَ حالِى فَهَلَّا راعيتَ مصلحتِى مثلَهُ فَانْقَطع الجُبَّائىُّ اهـ ثمَّ إنَّ الإمامَ رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى الرؤيا فِى العشرِ الأول من شهر رمضان يأمرُهُ أن ينصر المذاهبَ المَرْوِيَّةَ عنه صلى الله عليه وسلم وأنْ يأخذَ بالأحاديثِ الصحيحةِ التِى تلقاها أبو الحسن من أهلِ الحديثِ فِى الرؤيةِ فإنها الحقُّ فقال للنبِيِّ صلى الله عليه وسلم إنَّ الذِى منعه من الأخذِ بها أدلةُ العقولِ فلم يحملْها على ظاهرها وتأوَّلَهَا وإنَّ الذِى قالَهُ أهلُ السنةِ فِى دَفْعِ هذه الأدلةِ إنما هِىَ شُبَهٌ فقال له عليه الصلاة والسلام تأمَّلْها وانظُرْ فيها نظرًا مُسْتَوفًى فإنها ليستْ شُبَهًا بل هِىَ أدلَّةٌ فانتبهَ من نومه فزعًا وأخذَ يتأمَّلُ ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستثبتُ منه فوجد الأمرَ كما قالَ فقوِىَ فِى نفسِهِ جانبُ أدلةِ أهلِ السُّنَّةِ

وضعفَ كلامُ المعتزلةِ فسكتَ ولم يُظهِرْ من ذلك شيئًا ثم رأى النبيَّ عليه الصلاة والسلام فِى العَشْرِ الثانِى من رمضانَ يقولُ له أن يتأمَّلَ فِى باقِى المسائلِ المخالِفَةِ لأهل السنة فلما استيقظ جمع كتبَ الكلامياتِ وضَبَّرَها ورفعَها من بين يديه واشتغلَ بالحديث والقرءان وهو مع ذلك يتفكَّرُ فِى تلك المسائل لأجل أمر النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثم رأى فى العَشْرِ الثالثِ النبىَّ صلى الله عليه وسلم يسألُهُ وهو كالحَرْدان ما عملتَ فيما قلتُ لك فقال يا رسولَ اللهِ لم أَدَعِ التفكُّرَ فيما أمرتَنِى بِهِ إلَّا أنِّى رفضتُ الكلامَ كلَّه وأعرضتُ عنه واشتغلتُ بالفِقْهِ والحديثِ وتفسيرِ القرءَانِ فقال لِى مُغْضَبًا ومَنِ الذِى أمرك بذلك صَنِّفْ وانْصُرْ هذه الطريقةَ التِى أمرتُكَ بها فإنها دِينِى وهو الحقُّ الذِى جِئْتُ به وقال له جُــدَّ فيما أمرتُكَ به ولو لا أنِّى أعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يُمِدُّكَ بمددٍ مِنْ عِنْدِهِ لَمَا قُمْتُ عنكَ حتَّى أبيِّنَ لك وُجُوهَها إنك لنْ ترانِى فِى هذا المعنَى بعدها فَجُــدَّ فيه فإنَّ اللهَ سيُمِدُّكَ بمددٍ من عندِهِ قال فاستيقظتُ وقلتُ ما بعد الحقِّ إلَّا الضلالُ وأخذتُ فِى نصرة الأحاديثِ فِى الرؤية والشفاعة والنظر وغيرِ ذلك فكان يأتينِى واللهِ شَىْءٌ ما سمعتُهُ من خصمٍ قطُّ ولا رأيتُهُ فِى كتابٍ فعلمتُ أنَّ ذلك من مددِ اللهِ تعالى الذِى بَشَّرَنِى به رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ وقد رُوِيَتْ هذه الحكايةُ عنه عند ابن عساكر وغيرِهِ بأكثرَ من طريقٍ ورَوَوْا أنه بعد انقطاعِهِ

فِى بيتِهِ خرج إلى الجامع فِى البصرة يوم الجمعة فَرَقِىَ المنبرَ أو رَقِىَ كرسيًّا ونادَى بأعلى صوته مَنْ عَرَفَنِى فقد عَرَفَنِى ومن لم يعرفنِى فإِنِّى أعرِّفه بنفسِى أنا فلانُ بنُ فلانٍ كنتُ أقول بخلق القرءان وأنَّ الله لا تراه الأبصار وأنَّ أفعال الشرِّ أنا أفعلها يعنِى أخلقُها قال وأنا تائبٌ مقلعٌ معتقدٌ للردِّ على المعتزلة مُـخْرِجٌ لفضائحهم ومعايبهم وقد انخلعتُ مِنْ جميع ما كنتُ أعتقده كما انخلعتُ من ثوبِى هذا وانخلع من ثوبٍ كان عليه ورَمَى به ودَفَعَ كتبًا صنَّفَها إلى الناسِ منها كتابُ اللمعِ ومنها كتابٌ فِى إظهار عَوَارِ المعتزلةِ سماه كشف الأسرار وهتكَ الأستار فلمَّا قرأها أهلُ الحديثِ والفقهِ من أهلِ السُّنَّة أخذوا بما فيها واعتقدوا تقدُّمَ الشيخِ أبِى الـحَسَنِ فِى العِلْمِ واتخذوه إمامًا حتَّى نُسِبَ مذهبُهُمْ إليه اهـ

وكان رَضِىَ الله عنه قد أَلَّفَ بعض الكتب لَمَّا كان على مذهب الاعتزال فألَّف بعد رجوعِهِ عنه فِى نقضِ كلٍّ منها كتابًا وصنَّف كتابًا فى التفسير يقال إنَّه بلغ مِائَتَى جُزْءٍ وكتابًا كبيرًا فى صفات الله عزَّ وجل وكتاب الإبانة وكتاب اللُّمع وكتاب الردِّ على المُجَسِّمَةِ وكتاب خلق الأعمال وكتاب النقض على الجُبّائى وكتاب النقض على البلخِيِّ وكتاب الفنون فِى الردِّ على المُلحدين وكتاب النوادر فِى دقائق الكلام وكتاب الإمامة وكتاب الردِّ على ابن الراونديِّ وغيرَ ذلك حتى بلغتْ

مصنفاته رحمه الله تعالى أكثرَ من مِائَتَيْنِ وأمَّا كتابُهُ المُسَمَّى مقالاتِ الإسلاميين فإنّه صَنَّفَهُ لَمَّا كان على الاعتزال على ما قيلَ فلا ينبغِى اعتمادُ كلِّ ما فيه وكذلك لا ينبغِى اعتماد كلِّ ما فِى نسخةِ كتابِ الإبانةِ المطبوعةِ فِى الهندِ والطبعاتِ المعتمدةِ عليها فإنَّ المُشبِّهة قد دَسُّوا فِى الأصلِ الذِى طُبِعَتْ عنه ما يَعلَمُ كلُّ أشعريٍّ بل وكلُّ مسلمٍ أنه افتراءٌ لم يَقُلْهُ الأشعرىُّ رحمه الله جزمًا وكان الأشعرىُّ رحمه الله قد أَلَّفَ هذا الكتابَ فِى أوَّلِ دخوله بغدادَ وليس هو ءَاخِرَ مصنَّفاته كما يتوهَّمُ بعضٌ ۝

وذَكَرَ ابنُ الصَّلَاحِ فِى طبقاتِ الفقهاءِ الشافعيةِ ورَوَى الخطيبُ فِى تاريخه أنه كان يحضرُ بانتظامٍ حلقةَ إمامِ الشافعيةِ أبِى إسحٰقَ إبرٰهيمَ بنِ أحمدَ المَروَزِيِّ أيامَ الجُمَعِ فِى جامع المنصورِ ببغدادَ اهـ ونقلَ أبو محمد الجوينِىُّ عَنِ الأُسْتَاذ أبِى إِسْحَق الإِسفِرَايِينِيِّ قَالَ دخل أَبُو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ العِرَاق وَكَانَ يقْرَأ على أبِى إِسْحٰقَ المَروزِيِّ الفِقْهَ وَهُوَ يقْرَأ على أبِى الحسن الكَلَامَ اهـ وعدَّهُ أبو الحسن القُفْطِىُّ فِى طبقات النحاة اهـ وذكرَهُ الداودىُّ فِى طبقاتِ المفسِّرين اهـ وسمع الحديثَ من زكريّا السّاجيِّ وأبِى خليفةَ الجُمَحِيِّ وسهل بن نوح ومحمد ابن يعقوب المقرِئ وعبد الرحمن بن خَلَف الضَّبيِّ البصْريّين ورَوَى عنهم فِى تفسيره كثيرًا اهـ قاله ابن السبكيِّ وقال وَتَفْسِيرُهُ كتاب حافل جَامع قَالَ شَيخنَا الذهبى إِنَّه لَمَّا صنفه كَانَ على

الاعتزال قلتُ وَلَيْسَ الأمرُ كَذَلِك فقد وقفت على الجُزْءِ الأول مِنْهُ وَكلُّهُ رد على المُعْتَزلَة وتبيينٌ لفساد تأويلاتهم وَكَثْرَة تحريفهم وفِى مُقَدّمَة تَفْسِيره من ذَلِك مَا يقْضِى ناظرُهُ العَجَبَ مِنْهُ وَباللَّهِ التَّوْفِيق اهـ ذَكَرَ مَنْ صَحِبَهُ أَنه مكثَ عشرين سنةً يُصَلِّى الصُّبْحَ بِوضوءِ العَتَمَةِ اهـ رواه ابن عساكر. وذكرَ خادمُهُ أنه كان يكتفِى فِى معيشته بحصتِهِ من غلةِ ضيعةٍ وَقَفَهَا جدُّهُ بلال ابن أَبِى بردة ابن أَبِى موسى على عقبه وكانت نفقته فِى كل يوم سبعة عشر درهمًا اهـ رواه الخطيبُ وغيرُهُ ⊙

وكان رحمه الله تعالى واسع العلم قَوِىَّ العقل ناهض الحجة فى لسانه طلاقة وله هيبةٌ وقدرةٌ عظيمةٌ فِى المناظرة قال الأستاذ أبو إسحق الإسفراييني كنت فى جنب الشيخ أبى الحسن الباهلىِّ كقطرة فى جنبِ بحر وسمعت الباهلىَّ يقول كنت فى جنب الأشعرىِّ كقطرة فى جنب البحر اهـ وقال القاضِى أبو بكر الباقلّانىُّ أفضل أحوالِى أن أفهم كلامَ أَبِى الحسن اهـ وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرىُّ رحمه الله اتفق أصحاب الحديث أنَّ أبا الحسن علىَّ بن إسمٰعيل الأشعرىَّ كان إمامًا من أئمة أصحاب الحديث ومذهبُهُ مذهبُ أصحاب الحديث تكلم فى أصول الدين على طريقة أهل السنة وردَّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدع وكان على المعتزلة والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين عن المِلَّةِ سيفًا مسلولًا ومَنْ طعن فيه أو قدحَ

أو لعنَهُ أو سبَّه فقد بسط لسانَ السَّوْءِ فِى جميع أهل السنَّة اهـ وقال المؤرخ ابن العماد الحنبلىُّ بعدما وصفه بالإمام العلامة البحر الفهامة المتكلم صاحب المصنفات ومِمَّا بَيَّض به وجوه أهل السنَّة النبوية وسوَّد رايات أهل الاعتزال والجهمية فأبانَ به وجْهَ الحَقِّ أبلجَ ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلجَ مناظرتُه مع شيخه الجُبَّائِيّ التى قصم فيها ظهرَ كلِّ مبتدعٍ مراءٍ اهـ وقال أبو بكر ابنُ الصَّيْرَفِيّ من كبار أئمة الشافعية كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعرىَّ فَجَحَرَهُمْ فى أقماعِ السِّمْسِم اهـ وَقَالَ الأُسْتَاذ أَبُو سهلٍ الصُّعْلُوكِىُّ حَضَرنَا مَعَ الشَّيْخ أَبِى الحسن مجْلِسَ عَلَوِيٍّ بِالبَصْرَةِ فناظر المُعْتَزِلَة خذلَهُمُ الله وَكَانُوا يعْنى كثيرًا فَأتى على الكل وَهَزَمَهُمْ كُلَّمَا انْقَطع وَاحِدٌ تناول الآخر حَتَّى انْقَطَعُوا عَن ءَاخِرهم فعدنا فى المَجْلسِ الثانِى فَمَا عَاد مِنْهُم أحد فَقَالَ بين يَدَيِ العَلَوِيِّ يا غُلَامُ اكْتُبْ على البَابِ فَرُّوا اهـ

ولم يأتِ الإمامُ الأشعرىُّ رحمه الله فيما قاله برأيٍ مستحدَثٍ. قال ابنُ السبكيِّ فِى طبقاته اعلم أن أبا الحسن الأشعرىَّ لم يبتدعْ رأيًا ولم يُنْشِ مذهبًا وإنما هو مُقَرِّرٌ لمذاهبِ السلف مناضلٌ عما كانت عليه صحابةُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فالانتسابُ إليه إنما هو باعتبارِ أنه عقد على طريق السلف نطاقًا وتمسك به وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المُقْتَدِى به فى ذلك

السالكُ سبيله فِى الدلائل يُسَمَّى أشعريًّا اهـ وقال المَايُرْقِىُّ المالكىُّ لم يَكُنْ أبو الحسن أولَ متكلمٍ بلسانِ أهلِ السُّنَّةِ إنما جرى على سَنَنِ غيره وعلى نصرة مذهب معروف فزاد المذهب حجة وبيانًا ولم يبتدع مقالةً اخترعها ولا مذهبًا انفرد به ألا ترى أنَّ مذهب أهل المدينة نُسِبَ إلى مالك ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكى ومالك إنما جَرَى على سنن من كان قبله وكان كثير الاتباع لهم إلا أنه لما زاد المذهبَ بيانًا وبسطًا عُزِىَ إليه كذلك أبو الحسن الأشعرىُّ لا فرقَ ليس له فِى مذهب السلف أكثر مِنْ بَسْطِهِ وشَرْحِهِ وما أَلَّفه فى نصرته اهـ

وكان أبرزُ تلامذة الأشعرىِّ أبا عبد الله محمدَ بنَ أحمدَ ابنِ محمد بنِ يعقوب بن مُـجاهدٍ البصْرِىَّ ثم البغدادىَّ وأبا الـحَسَنِ الباهلىَّ البصرىَّ وأبا الـحسن عبدَ العزيز بن محمد الطبرِىَّ راوِى تفسيرِ أَبِى جعفر الطبرىِّ عن مصنِّفِهِ وأبا الحسنِ علِىَّ بن محمد بن مهدىٍّ الطبرىَّ وخادمَهُ أبا الحسين بُندار بن الحسين الشيرازىَّ الصُّوفِىَّ صاحب الشبلِىِّ والإمامَ أبا بكر محمد بن سليمان الصُّعْلُوكِىَّ وءَاخَرُون. وعلى الباهلىِّ تتلمذَ أبو بكر محمد بن الحسن ابنُ فُورك وأبو إسحق إبراهيم بن محمد الإسفرايينىُّ وغيرُهُما مِمَّن نشروا المذهب فِى بلادِ المَشْرِقِ وعلى ابنِ مجاهدٍ تتلمذَ القاضِى أبو بكرٍ محمدُ بنُ الطَّيِّبِ الباقلانىُّ ونشَرَ المذهب فى المشرق والمغرب وكان

الصاحبُ ابنُ عبّاد المعتزلىُّ يقول فِى هؤلاء الثلاثة الباقلانىُّ بحرٌ مُغْرِقٌ وابن فُورَكَ صِلٌّ مُطْرِقٌ والإسفرايينىُّ نارٌ تُحرِق اهـ ثم بعد هـؤلاء الأئمةِ كان ءَالافٌ بعدَ ءَالافٍ من علماء أهل السنة سالكونَ لطريق الإمامِ الاشعريّ حتى صار لا يقال عنِ الإنسانِ إنه سنِّىٌّ إلا إذا كان أشعريًّا أو ماتريديًّا نسبةً للإمام أبِى منصورٍ الماتريديّ فالمالكيةُ والشافعيةُ وسُدُسُ الحنفيةِ وفضلاءُ الحنابلةِ أشاعرةٌ وبقيةُ الـحنفية ماتريديةٌ. ومن مشاهير علماء الأشاعرة الحافظ أبو بكر الإسماعيلىُّ والحافظُ النجمُ أبو نُعيم الأصبهانى وصاحبُ الصحيحِ ابنُ حبان البستىُّ وأبو عبد الله الحسينُ ابنُ عبدِ الله ابن حاتم الأزدىُّ تلميذ الباقلانِيّ وحاملُ علمه إلى القيروان وبلادِ المَغربِ والحافظُ أبو عبد الله الحاكمُ صاحب المستدركِ والحافظ العَلَمُ أبو بكر البيهقىُّ والحافط المشهور أبو الحسن الدارقطنىُّ والإمامُ المُجَدِّدُ أبو الطيب سهل بن محمد الصُّعلوكِىُّ والقاضِى أبو محمد عبد الوهاب بنُ عليٍّ المالكىُّ والإمام أبو منصورٍ عبدُ القاهر التميمىُّ البغدادىُّ والحافظُ أبو ذَرٍّ عبدُ بن أحمد الهَرَوِىُّ والقاضِى أبو جعفر محمدُ بن أحمد السِّمَنانِىُّ الـحَنَفِىُّ والمُقرئُ رشا بنُ نظيف الدمشقىُّ والشيخ أبو محمد الجوينىُّ وابنه إمام الحرمين والأستاذ أبو القاسم القشيرىُّ وابنه أبو نصرٍ وباقِى أولادِهِ والفقيهُ سُلَيْمُ الرازىُّ وصاحبُ تاريخ بغداد الحافظ الخطيب البغدادىُّ والعالِمُ الشريفُ أبو طالب

ابن المُهتدِى باللهِ العباسِىُّ والقاضِى عياضٌ وحافظُ الشام بل حافظُ الدنيا فِى زمانه أبو القاسم ابنُ عساكر والشيخُ الفقيهُ أبو إسحـٰق الشيرازىُّ والفقيهُ نصر بن إبراهيم المقدسىُّ وأبو حامد الغزالىُّ وإلْكِيَا الهرَّاسِىُّ وفقيه الحرم الإمامُ أبو عبد الله محمد ابن الفضل الفراوىُّ وأبو الوليد الباجىُّ والحافظ ابن السَّمْعَانِىِّ والقاضِى أبو بكر بن العربِىّ وأبو زكريا النووىُّ وابن الحاجب المالكىُّ وفخر الدين الرازىُّ والعز بنُ عبد السلام وابن دقيق العيد وعلاءُ الدين الباجىُّ والإمام المجتهد تقىُّ الدين السبكىُّ وولداه والحافظ العلائىُّ والإمامُ المجتهدُ سراج الدين البلقينىُّ وولداه والحافظ زين الدين العراقىُّ وابنه الحافظ ولىُّ الدين والحافظ نور الدين الهيثمىُّ والحافظ ابن حجر العسقلانىُّ وغيرُهُمْ من مشاهير العلماء ومنهم الإمام السيد أحمدُ الرفاعىُّ وأغلبُ شيوخِ الطرق الصوفية المعروفة الذينَ نشروا الإسلامَ فِى إفريقيةَ ووسط ءَاسية وجنوبها وجنوبِ شرقِها كما فعلَ الشيخُ معين الدين الجشتِىُّ فِى الهند والشيخ أحمد بَمْبَا فِى السنقال وكان لَهُمْ وَقَفَاتُ الجهادِ المُشَرِّفَةُ ضِدَّ المُحْتَلِّينَ الطِّليان فِى لِيبية والفرنسيين فِى الصحراء وجنوب المغرب الأقصى والجزائر والشَّام والروسِ فِى الشيشان والداغستان وأنغوشية وضدَّ الإنكليز واليهودِ فِى فلسطين وغيرها ومنهم الوزير العالم المشهور نظامُ المُلْكِ والسلطانُ المجاهد صلاح الدين

الأيوبىُّ طارد الصليبيين من بيت المقدس والملك الكامل هازم الصليبيين في دمياط وءَاسِرُ ملوكهم وباقِى سلاطين الأيُّوبيين والسلطانُ قطز والسلطانُ الظاهِرُ بَيْبَرْس هازما التتار والسلطانُ الأشرفُ خليلٌ طاردُ الصليبيين من بلاد الشام وباقِى سلاطينِ المَماليك ومنهم العلماءُ والمجاهدون سلاطينُ بلادِ المَلَايُو وما والاها من إماراتِ كَمبودية وفيتنام والفليبين والعالمُ المجاهد عثمان بن فُودة مُؤَسِّسُ دولةِ نَيْجِيرية هذا مع العلم أنَّ كلَّ مشايخِ قرطبة وغرناطة وغيرهما من مراكز العِلْمِ فِى الأندلس ومن تخرج على أيديهم وكلَّ مشايخ مسجد القرويين فِى فاس ومن تخرَّج على أيديهم من شيوخِ المغربِ الأقصى وكلَّ مشايخ مسجد عُقْبَةَ فى القيروان ومن تخرج على أيديهم من شيوخ إفْرِيقِيَّةَ والمغرب العربِيّ وكلَّ مشايخ مسجد الزيتونة ومن تخرج على أيديهم فِى تونس والجزائر وليبية وإفريقية وكلَّ شيوخِ المحاضر الشناقطةِ ومن تخرج على أيديهم فِى موريتانية والسنقال والنيجر ومالِى وغيرها ومشايخَ هَرَرَ ومَنْ تخرَّج على أيديهم فِى الحبشة وحولَهَا وكلَّ مشايخ الأزهر ومن تخرج على أيديهم فِى مصر والسودان وغيرهما من بلاد الدنيا شرقًا وغربًا وكلَّ مشايخِ زَبيد وتريم وغيرهما من حواضر أهلِ السُّنَّةِ فِى اليمنِ والعلماء الذين تخرجوا على أيديهم فانتشروا فِى شرق إفريقية والهند وأندنوسية وماليزية والهند الصينية ومن تخرج

على أيديهم أقولُ لا يَخْفَى أنَّ كلَّ هؤلاءِ أشاعرةٌ شعارُهُم لائحٌ وأثرُهُمُ المحمودُ ظاهرٌ لكُلِّ بصيرٍ ومن أراد إحصاءهم فكأنَّه أراد إحصاء نجوم السماء وما زال علماء الأشاعرة مع إخوانهم علماء الماتريدية ينشرون النور فِي أرجاءِ المعمورةِ ويُبَيِّنُونَ الحقَّ وينافحون عنه فى الشرق والغرب إلى أيامنا فِي وجه كل زائغ ومنحرف ورحم الله الشيخ أبا نصر عبد الرحيم القشيرىَّ القائل

شَيئانِ مَـنْ يَعذُلُنِى فيهما فهو علـى التحقيقِ مِنِّى بَرِى
حـبُّ أبِـى بكرٍ إمـامِ الهُـدَى ثم اعتقادِى مذهبَ الأشْعَرِى اهـ

ولم يكن علمُ الكلامِ فنَّ الأشعريِّ الوحيد ولا مَبْلَغَ علمه فقد رَوَى الحافظُ أبو القاسمِ علىُّ بن الحسن ابن عساكر رحمه الله فِي كتابِ تبيين كذب المُفْتَرِى قال حدثنِى الثقةُ من أصحابنا أخبرنِى الحافظ القاضِى أبو إسحٰق بن علىِّ بن الحسين الشيبانىُّ الطّبرىُّ ثم المكّىُّ من لفظه ببغداد أنا الحافظ أبو نعيم عبيد الله ابن الحسن بن أحمد بن الحسين بأصبهانَ حدثنا أبو إبراهيم بن سعد بن مسعود العتبىُّ بنيسابور أنا الأستاذ أبو منصور عبد القاهر ابن طاهر البغدادىُّ سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ محمّدِ بنِ طاهرٍ الصوفىَّ يقولُ رأيتُ أبا الحسنِ الأشعرىَّ فى مسجدِ البصرةِ وقدْ أَبْهَتَ المعتزلةَ فى المناظرةِ فقالَ لهُ بعضُ الحاضرينَ قدْ عرفنا تبحّركَ

فى الكلامِ فإنِّى أسألُكَ عنْ مسألةٍ ظاهرةٍ فى الفقهِ فقالَ سلْ ما شئتَ فقالَ لهُ ما تقولُ فى الصلاةِ بغيرِ فاتحةِ الكتابِ قالَ حدثنا زكريا بنُ يحيى الساجىُّ حدثنا عبدُ الجَبَّارِ حدثنا سفيانُ حدثنى الزهرىُّ عنْ محمودِ بنِ الربيعِ عنْ عبادةَ بنِ الصّامتِ رضىَ اللهُ تعالى عنهُ عنِ النبىِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ لا صلاةَ لمنْ لم يقرأْ بفاتحةِ الكتابِ[1] اهـ قالَ وحدثنا زكريا حدثنا بُندارٌ حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ عنْ جعفرِ بنِ ميمونٍ حدثنِى أبو عثمانَ عنْ أبِى هريرةَ رضىَ اللهُ عنهُ قالَ أمرنِى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ أنْ أنادىَ بالمدينةِ أنهُ لا صلاةَ إلا بفاتحةِ الكتابِ قالَ فسكتَ السائلُ ولم يَقُلْ شيئًا[2] اهـ⊙

ونسخةُ رسالةِ الأشعرىِّ هـٰذِهِ جَيِّدةٌ موجودةٌ ضمنَ مجموعٍ مِنْ محفوظاتِ مكتبةِ فيضِ اللهِ أفندى فِى تركية وهِىَ مُعارَضَةٌ بأصلِها وهو أصلٌ وثيقٌ مقروءٌ على أبِى صادقٍ محمدِ بنِ يَحْيَى ابنِ مُفَرِّجٍ الذِى حلاهُ الحافظُ ابنُ ناصرِ الدين الدمشقِىُّ فِى توضيحِ المشتبهِ بالمُحَدِّثِ وهو رواها عن أبيهِ الحافظِ الشهيرِ رشيد الدِّينِ العطّار أبِى الحسين يحيى بن علىِّ بن عبد الله ابنِ علىِّ بن مفرِّجٍ القرشىِّ الأموىِّ النّابلسىِّ الأصلِ المِصْرىِّ المولدِ والوفاةِ المالكىِّ المذهبِ وهو رواها عن جمالِ الدِّينِ

---

(١) رواه أحمد فِى مسنده. مصنف.

(٢) رواه أحمد فِى مسنده. مصنف.

أَبِى الحسنِ عليِّ بنِ إبراهيمَ القرشيِّ المِصريِّ شيخِ الحافظِ المُنذرِيِّ بإسنادِهِ اهـ وقد قُرِئَتْ هـٰذهِ النُّسخةُ على شيخنا المتكلِّمِ المُحَدِّثِ الإمامِ عبدِ اللهِ بنِ محمد الهَرَرِيِّ الشافعيِّ الأشعريِّ وتلقَّيْتُها عن قارئِها كما أُجزتُ بهَا مِنْ شيخِنا وهو يَروِيهَا مِنْ طرقٍ عديدةٍ منها روايتُهُ عنِ مُقرِئِ الحبشةِ الفقيهِ المُسنِدِ السيدِ أحمدَ بنِ عبد الرحمـٰنِ الـحَسَنِيِّ المَعروفِ بحاج كبير الشافعيِّ الأشعريِّ عن السيد الفقيهِ محمد بن عبد الباقِى الأهدل الشافعِيِّ الأشعرِيِّ عن أبيه السيد الفقيهِ عبد الباقِى بن عبد الرحمن الشافعِيِّ الأشعرِيِّ عن جدِّهِ المُفْتِى المحدِّثِ سليمانَ بن يحيى الأهدل الشافعِيِّ الأشعرِيِّ عن الفقيهِ المحدِّثِ أبِى الأسرارِ حسنِ بن عليِّ العُجَيميِّ المَكِّيِّ الحنفِيِّ عن مسندِ اليمنِ الشيخِ المُرشِدِ صَفِيِّ الدِّينِ أحمدَ بنِ محمد ابن العَجِلِ الشافعيِّ عن مفتِى مكةَ ومحدِّثِها ومُؤَرِّخِها قطبِ الدين محمدِ بن أحمد بن محمد النهروالِيِّ الحنفِيِّ عن الفقيهِ المحدِّثِ عبد الحقِّ بن محمد السنباطِيِّ الشافعِيِّ عن الحافظ القاضِى أحمد بن عليِّ ابنِ حجرٍ العسقلانِيِّ عن الحافظ الفقيهِ الأصولِيِّ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقِيِّ عن أَبِى العباس أحمدَ بن يوسف بنِ أحمدَ الخِلاطيِّ عن الحافظِ عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطِيِّ عن الحافظ عبد العظيم بن عبد القويِّ المُنْذِرِيِّ والحافظِ رشيدِ الدينِ أَبِى الحسين يحيى

بن عليّ ابن مفرّجٍ القرشيّ المِصْرِيّ المالكيّ كلاهما عن الشيخِ الإمامِ جمالِ الدينِ أبى الحسنِ عليّ بنِ إبراهيمَ بنِ عبدِ اللهِ القرشيّ المِصريّ المالكيّ قالَ أخبرنا الفقيهُ الإمامُ العالمُ فخرُ الدينِ أبو المَعَالِى محمدُ بنُ أبى الفرجِ بنِ محمدِ بنِ بركةَ المَوصلىُّ قراءةً عليهِ وأنا أسمعُ فى مسجدِهِ بسوقِ السلطانِ ببغدادَ يومَ الثلاثاءِ الثانِى مِنْ شوالٍ سنةَ سِتّمِائَةٍ قيلَ لهُ قرأتَ على الشيخِ الإمامِ الصَّدوقِ أبى منصورٍ المباركِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ محمدٍ البغدادىّ يومَ عرضِكَ برباطهِ المعروفِ برباطِ البربهيريةِ شرقىَّ مدينةِ السَّلَامِ منْ سَنَةِ ثلاثٍ وسبعينَ وخمسِمِائَةٍ فأقرَّ بهِ أنا الشيخُ الإمامُ الحافظُ جمالُ الدينِ أبو الفضلِ عبدُ الرحيمِ ابنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ خالدٍ المعروفُ بابنِ الإخوةِ سنةَ اثنتينِ وأربعينَ وخمسِمِائَةٍ أنبأنا الشيخُ أبو الفضلِ محمدُ ابنُ يحيى الناتلىُّ بمازَنْدَران فى منزلِهِ بقراءَتِى عليهِ أنا أبو نصرٍ عبدُ الكريمِ بنُ محمدِ بنِ هٰرونَ الشيرازىُّ أنا علىُّ بنُ رستمٍ ثنا علىُّ بنُ المَهْدِىّ قالَ سمعتُ الشيخَ الأوحدَ شيخَ المشايخِ أبا الحسنِ علىَّ بنَ إسمٰعيلَ الأشعرىَّ رَضِىَ اللهُ عنهُ يقولُ

(الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ) أىْ مالكِهِمْ **(وصَلَّى اللهُ على محمدٍ النَّبِيّ)** جملةٌ خبريةٌ يرادُ بها الدعاءُ أىْ زِدْ يا رَبِّ سيدَنا محمدًا شَرَفًا ورِفْعَةً والنَّبِىُّ هو الآدمىُّ الذَّكَرُ المُرْسَلُ بالوَحْىِ منَ اللهِ ليُبَلِّغَ عنه تعالَى **(و)**على **(ءالِهِ)** أىْ أقاربِهِ المؤمنينَ **(الطَّيِّبين)**

أيِ أصحابِ الأخلاقِ العاليةِ الطاهرينَ مِن الأدناسِ **(وأصحابِهِ)** جمع صاحبٍ وهم الذينَ الْتَقَوْا بِهِ مِنَ الإنسِ والجِنِّ من طريقِ العادةِ مؤمنينَ ومَاتوا عَلَى ذلكَ **(الأئمَّةِ)** جمع إمامٍ وهو مَنْ يُؤْتَمُّ به أى يُقتَدَى به **(المُنْتَخَبِينَ)** أيِ المُختارينَ ◌

(أما بعدُ فإنَّ طائفةً منَ الناسِ جَعَلُوا الـجهلَ رأسَ مالِهِمْ) وارتَضَوْهُ بِضاعةً فَخَلَوْا عنِ العِلْمِ **(وثَقُلَ عليهِمُ النظرُ)** أيِ التفكُّرُ للتوصُّلِ إلى نتيجةٍ يُحْكَمُ عليها بالصحةِ أو الفسادِ **(و)ثَقُلَ** عليهِمْ لذٰلكَ **(البحثُ عنْ)** أصولِ **(الدينِ)** الإسلاميِّ وقواعدِهِ **(ومَالُوا)** بسببِ بلادةِ أذهانِهِمْ **(إلى التَّخفيفِ و)**السهولةِ بحيثُ وقعوا فِى التفريطِ وحملهم ذٰلكَ على **(التقليدِ)** فِى أصولِ الدِّيْنِ وهوَ مَمْنُوعٌ مذمومٌ لأنَّ الاعتقاداتِ يُطلَبُ فيها الحقُّ المقطوعُ به المُوصِلُ يقيناً إلى السلامةِ ولا يُتوصَّلُ إلى هذا النوعِ من الجَزْمِ إلَّا بالدليلِ القاطعِ ولا دليلَ فِى التقليدِ وقدْ ذَمَّ ربُّنا تباركَ وتعالى الكفارَ الذينَ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ الآيَةَ لأنهم قَلَّدُوا ءَابَاءَهُم بغيرِ دليلٍ فَعُلِمَ منْ ذلكَ أنَّ طلبَ الدليلِ فى أصولِ العقائدِ مأمورٌ بهِ وأنَّ الاكتفاءَ فيها بالتقليدِ مذمومٌ وقد وقعَ اتفاقُ عُلماءِ أهلِ السنَّةِ كُلِّهِمْ عليهِ فكانَ الصحابةُ ومَنْ بعدهم مأمورين بتحْصِيلِ أدلةِ إثباتِ وجودِ البارئِ تعالى وصفاته ونبوةِ المصطفَى عليه الصلاة والسلام مكلفين بمعرفةِ ذٰلك والطريقُ إلى تحصيلِ المعارفِ إمَّا الحسُّ وإمَّا الخبر وإما النظرُ ولا طريقَ

إلى تحصيل هٰذه المعارف بالحسِّ لأنهم ما رأَوا الله تعالى ولا سمعُوا خطابَهُ ولا بالخبرِ لأنَّ صِدقَ كلام ذٰلك المُخْبِرِ يحتاجُ إلى دليلٍ ولا يصلحُ الدليلُ أنْ يكون خبرًا لأنَّهُ يحتاجُ إلى دليلٍ أيضًا فيتسلسلُ فلمْ يبقَ سبيلٌ إلَّا النظر فيكون واجبًا لأنه لا سبيلَ لتحصيلِ الواجبِ إلَّا به. ونقل الشيخ أبو إسحٰق الشيرازىُّ فِى كتاب الإشارة إلى مذهب أهل الحق عن أهلِ السنةِ اعتقادهم امتناعَ التقليد فِى معرفة الله عزَّ وجلَّ قال لأنَّ التقليدَ قبولُ قول الغير من غير حجةٍ وقد ذمَّهُ اللهُ تعالى فقال عزَّ وجلَّ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾[1] ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2] ولأنَّ المُقتَدَى بهم تتساوى أقوالُهُمْ أىْ مِنْ غير الدليل فليس بعضُهُمْ أولَى من بعضٍ. وإذا كان الأنبياءُ مع جلالةِ قدرِهِمْ وعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِم لم يدعُوا الناسَ إلى تقليدِهِم من غيرِ إظهارِ دليلٍ ولا معجزةٍ فمَنْ نزلتْ درجتُهُ عن درجتِهِم أولَى وأحرى أنْ لا يُتَّبَعَ فيما يدعو إليه من غيرِ دليلٍ فعلى هذا لا يجوز تقليدُ العالم للعالم أىْ فِى أصولِ الاعتقادِ ولا تقليد العامِّىِّ للعامِّىِّ ولا تقليد العامِّىِّ للعالم ولا تقليد العالم للعامِّىِّ فإنْ قيلَ فَلِمَ جوَّزْتُمْ تقليدَ العامِّىِّ للعالِمِ فِى الفروعِ ولم تُجيزوها فِى الأصولِ قيل لأنَّ الفروعَ دليلُهَا السَّمعُ وقدْ يصلُ

---

(١) سورة الزخرف / من الآية الرابعة والعشرين.

(٢) سورة الزحرف / من الآية الثالثة والعشرين.

إلى العالِمِ من السَّمْعِ ما لا يصلُ إلى العامِّيِّ فلَمَّا لم يتسَاوَيَا فِى معرفةِ الدليلِ جاز له تقليدُهُ وليس كذٰلك الأصلُ الذِى هو معرفةُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ فإنَّ دليلَهُ العقلُ والعامِّيُّ والعالِمُ فِى ذٰلكَ سواءٌ فإنَّ العالِمَ إذا قال للعامِّيِّ واحدٌ أكثرُ من اثنين لم يقبلْ منه لَمَّا كان من غير دليل فالفرق بينهما ظاهرٌ اهـ (و)لٰكِنْ لَمَّا ثقلَ على أولئكَ الكُسَالَى الاستدلالُ واجْتَزَءُوا عنهُ بتقليدِ غيرِ المَعْصُومِ **(طَعَنُوا على مَنْ فتَّشَ عنْ)** أدلةِ **(أصولِ الدِّينِ ونسبوهُ إلى الضلالِ وزعموا أنَّ الكلامَ فِى الحركةِ والسكونِ والجِسْمِ)** أيِ الحجمِ الذى لهُ طولٌ وعرضٌ وعمقٌ **(والعَرَضِ)** أيِ الصِّفَةِ القائمةِ بالحجمِ **(والألوانِ)** كالأبيض والأسودِ **(والأكوانِ)** كالاتصالِ والانفصالِ والحركةِ والسكونِ **(والجُزْءِ)** الذِى لا يَتجزَّأُ وهوَ المُسَمَّى بالجوهرِ الفردِ أىْ زعموا أنَّ الاستدلالَ بها على حدوث العالَمِ ووحدانيةِ الخالقِ تبارك وتعالَى (و) أنَّ الكلامَ فِى إبطالِ **(الطفرةِ)** التِى ابتدعَ القولَ بها النَّظَّامُ (و) الكلامَ فِى إثباتِ **(صفاتِ البارئِ عزَّ وجلَّ)** والجمعَ بينَ إقامةِ الأدلةِ العقليةِ والنقليةِ على ذلك زَعَمُوا أنَّ كلَّ ذلكَ **(بدعةٌ وضلالةٌ)** كما زَعَمَ مثلًا منْ متأخريهمْ عبدُ العزيزِ بنُ باز أنَّ تنزيهَ اللهِ عنِ الجسم والحدقةِ والصماخِ واللسانِ والحنجرةِ ليسَ بمذهبِ أهلِ السُّنَّةِ اهـ وما ذاكَ إلا لأنهُ وأمثالَهُ يحبونَ انتشارَ عقيدةِ التجسيمِ فى اللهِ تعالى كشأنِ الوثنيينَ عبدةِ الأصنامِ ومَنْ

شاكلهمْ من مُشَبِّهَةِ أهلِ الكتابِ فيمنعونَ الكلامَ فِى التنزيهِ حتَّى لا تنتشرَ أدلةُ عقائدِ أهلِ السنةِ فيُسَدَّ عليهم بابُ التظاهرِ بأنهم سُنيّونَ ويعسُرَ عليهم ادِّعَاءُ الانتماءِ إِلَى هٰذا المذهبِ العظيمِ فلا يستطيعوا بعدَ ذلكَ أن يخدعوا العوامَّ من حيثُ لا ينتبهونَ۞

(و)قال هؤلاءِ المشبهةُ (لو كانَ ذلكَ هدًى ورشادًا لتكلم فيه النبىُّ صلى الله عليه وسلم وخلفاؤُهُ وأصحابُهُ قالوا ولأنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى تكلم فى كل ما يُحتاج إليه من أمور الدين وبينه بيانًا شافيًا ولم يترك بعده لأحد مقالًا فيما للمسلمين إليه حاجةٌ من أمور دينهم وما يقربهم إلى الله عز وجل ويباعدهم عن سخطه فلما لم يَرْوُوا عنه الكلام فِى شَىْءٍ مِمَّا ذكرناه علمنا أنَّ الكلام فيه بدعةٌ والبحثَ عنه ضلالةٌ لأنه لو كان خيرًا لَمَا فاتَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهِ ولتكلموا فيه قالوا ولأنه ليس يخلو ذلك من وجهينِ إمَّا أن يكونوا عَلِمُوهُ فسكتُوا عنه أو لم يعلموه بل جهلُوهُ فإن كانوا علمُوهُ ولم يتكلموا فيه وسعنا أيضًا نحن السكوتُ عنه كما وسعهم السكوتُ عنه ووسعنا تركُ الخوض كما وسعهم ترك الخوض فيه) قالوا (ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوتُ عنه وإنْ كانوا لم يعلموه وَسِعَنَا جهلُهُ كما وسع أولئك جهلَهُ لأنه لو كان من الدين لم يجهلوه فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة والخوض فيه ضلالة) اهـ قال الشيخُ أبو الحسنِ رَضِىَ

اللهُ عنهُ (**فهذهِ جملةُ ما احتجوا بهِ فى تركِ النظرِ فى الأصولِ**) وهو خلاصةُ ما قالوهُ قديمًا وحديثًا وقدْ لـخَّصَهُ الإمامُ رحمهُ اللهُ بعبارةٍ أوضحَ وأرشقَ من عباراتهم وسلكَ فِى نَهْجِهِ هذا المَسْلَكَ القُرْءَانِىَّ فى إيرادِ كلامِ الخصمِ وما يَتَّخذهُ حجةً ودليلًا لِيَرُدَّ عليهِ بعدَ ذلكَ وعلى هذا النهجِ (**قَالَ الشيخُ أبو الحسنِ رضىَ اللهُ عنهُ الجوابُ عنهُ**) أىْ عما زعموهُ وقرروهُ (**من ثلاثةِ أوجهٍ**) اختارَهَا (**أحدُها قلبُ السؤالِ عليهم**) على وَفْقِ طريقةٍ وردَتْ فى القرءانِ والسنةِ وذلكَ (**بأن يقالَ النبىُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم لم يَقُلْ**) أيضًا (**إنهُ مَنْ بحثَ عن ذلكَ وتكلمَ فيهِ فاجعلوهُ مبتدعًا ضالا**) وأنتم خالفتُمْ ذلك فنسبتم أهلَ السنة وعلماءهم إلى الزيغِ والضلالِ بسببِ تكلمهم فِى ما لم يَرِدْ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى ما ادعيتم (**فقد لزمكم**) بناءً على أصلكم هذا الذِى التزمتموهُ (**أن تكونوا مبتدعةً ضلالا**) كذلك (**إذ قد تكلمتم فِى شَىْءٍ لم يتكلمْ فيه النبىُّ صلى الله عليه وسلم وضَلَّلْتُمْ مَنْ لم يُضَلِّلْهُ النبىُّ صلى الله عليه وسلم**) اهـ وهـٰذهِ حجةٌ دامغةٌ لا مهربَ لَهُم منها فإنهم إنْ قالوا احتجْنَا للكلام فِى هـٰذا قلنا ونحنُ كذلكَ احْتَجْنَا للكلامِ فِى بيانِ أصولِ العقائدِ وأَدِلَّتِهَا وقد واجهتمونا بأَنَّهُ لم يأتِ عَنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذْنٌ بالكلامِ ولو كانتْ حاجةٌ لتمنعونا منه فكيفَ تُقْدِمُونَ على ما تزعمونهُ زَيْغًا وتحكمون بِضَلالِنَا بسببِهِ ۝

ثم قال الإمامُ أبو الحسنِ رحمه الله (**الجوابُ الثانى أن يقال لَهُمْ إنَّ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئًا مِمَّا ذكرتموه مِنْ**) تفاصيل (**الكلام فِى الجسم والعرض والحركة والسكون والجُزْءِ**) الذِى لا يَتَجَزَّأُ (و)بطلان القول فِى (**الطفرة وإن لم يتكلمْ فِى كلِّ واحد من ذلك مُعَيَّنًا**) ويدلُّ على معرفته صلى الله عليه وسلم ما ذَكَرَهُ عليه السلامُ تكرارًا من أصولٍ وقواعدَ تدخلُ تحتها هذه التفاصيلُ وبها يهتَدِى علماء الأمة عند التفصيلِ إذا حدثتِ الحاجة لذلك (**وكذلك الفقهاءُ والعلماءُ مِن الصحابةِ**) عرفوا تفاصيلَ ما تقدم بدليلِ ما نقلوا من أصولٍ وقواعدَ فِى هذا الفنّ وما فصَّلُوا وشرحُوا فيه. وتقريبُ ما أرادَ الأشعرىُّ رحمه الله إيضاحُهُ أنَّ مَن علم أنَّ كلَّ ما خرج من أحد السبيلين ينقض الوضوء إلا المنىَّ فهو عالمٌ من حيث الجملة بأنَّ خروج البول ناقضٌ وأنَّ خروج الريح ناقضٌ وأنَّ خروجَ الغائطِ ناقضٌ وأنَّ خروج الدمِ ناقضٌ وأنَّ خروجَ الدودِ ناقضٌ وأنَّ خروجَ الحصى ناقضٌ وأنَّ خروجَ الماءِ المختلطِ بالدمِ ناقضٌ إلى ءَاخِرِهِ وإنْ لم يَذْكُرْ نَصًّا كلَّ أمرٍ من هذهِ الأمورِ وكلَّ ناقضٍ منها لـٰكنَّهُ مَتَى احتاجَ ذَكَرَ وفصَّلَ وهـٰكذا يُقَالُ فِى هـٰذهِ التفاصيلِ العَقَدِيَّةِ إنَّها وإنْ لم تَرِدْ مُفَصَّلَةً نصًّا منَ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم (**غيرَ أنَّ**) تفصيلَها يَحْسُنُ عند الحاجةِ فإنَّ (**هـٰذهِ الأشياءَ التِى ذكرتموها مُعَيَّنَةً أصولُهَا موجودةٌ فِى القرءانِ والسُّنَّةِ جملةً غيرَ مفصَّلةٍ**)

بلا شكٍّ فلا وجهَ للإنكارِ، وَلْنُعْطِ أمثلةً لذلكَ (**فأما الحركة والسكون والكلامُ فيهما فأصلُهُما موجودٌ فِى القُرْءَانِ والسُّنَّةِ وهُما يَدُلَّانِ على التَّوحيدِ**) فإنَّ الجسمَ إما أن يكونَ ساكنًا وإما أن يكونَ متحركًا وكلٌّ من الحركة والسكونِ يقبلُ العدمَ فإنه ما من متحركٍ إلا ويقبلُ العقلُ سكونَهُ وما من ساكنٍ إلا ويَقْبَلُ العقلُ تحركَهُ وما يقبلُ العدمَ حادثٌ فَيَنْتُجُ أنَّ كُلًّا منَ الحركةِ والسكونِ حادثٌ والجسمُ لا يخلو عنِ الحركةِ والسكونِ وما لا يخلو عنِ الحادثِ لا بُدَّ أن يكونَ حادثًا فالجسمُ إذًا حادثٌ يحتاج إلى خالقٍ خَلَقَهُ لا يكونُ حادثًا ولا يَتَّصِفُ بصفاتِهِ، (**وكذلكَ الاجتماعُ والافتراقُ**) فإنَّ كُلًّا منهما يدلُّ على حدوثِ ما اتَّصَفَ بهِ على نسقِ دلالةِ الحركةِ والسكونِ. وهذا الأمرُ أصلهُ موجودٌ فى القرءانِ (**قال الله تعالى مخبرًا عن خليلِهِ إبراهيمَ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ فى قصةِ أُفولِ الكوكبِ والشمسِ والقمرِ وتحريكِها من مكانٍ إلى مكانٍ ما دلَّ على أنَّ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ لا يجوزُ عليهِ شَىْءٌ منْ ذلكَ وأنَّ مَن جازَ عليهِ الأُفُولُ و**)هوَ فى الحقيقةِ عينُ (**الانتقالِ من مكانٍ إلى مكانٍ فليس بإلـٰهٍ**) إذْ إنَّهُ منَ المعروفِ أنَّ كُلًّا منَ النَّجمِ والقمرِ والشمسِ إذا أفلَ فى مكانٍ فهوَ طالعٌ فى الوقتِ نفسهِ فى مكانٍ ءاخرَ وإنَّمَا انْتَقَلَ من موضعٍ إلى موضعٍ وتحرَّكَ وتغيَّرَ وهذا ما استدلَّ بهِ سيدُنا إبراهيمُ عليهِ السلامُ على مَا ذَكَرَ المفسرونَ حينَ قالَ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ ۝

قال الإمامُ الأشعريُّ رحمه الله (**وأمّا الكلامُ فِى أصولِ التوحيدِ**) أىْ فِى تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالألوهيةِ وعدمِ جوازِ الشريكِ على اللهِ تعالَى (**فمأخوذٌ أيضًا منَ الكتابِ قالَ اللهُ تعالى** ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾) أىْ لو كان للسموات والأرض ءالِهَةٌ غير اللهِ لَمَا وُجِدَتَا بل لكانتا معدومتين ولم تجريا بنظامٍ (**وهذا الكلامُ موجزٌ مُنَبِّهٌ على الحُجَّةِ بأنهُ**) سبحانه (**واحدٌ لا شريكَ لهُ**) وهو أصلٌ وقاعدةٌ يُرجعُ إليها فِى هذا البابِ (**وكلامُ المتكلمينَ فى الحِجاجِ فِى التوحيدِ**) وانتفاءِ الشريكِ (**بالتمانعِ والتغالب فإنَّما مرجعُهُ إلى هذهِ الآيةِ**) واحتجاجُهُمْ فِى نَفْيِ الشريكِ بعمومِ مشيئةِ اللهِ وعمومِ قدرتهِ واستحالةِ مُؤَثِّرينِ حقيقيينِ فِى أثرٍ واحدٍ وأنهُ لو فُرِضَ وجودُ إلـٰهينِ فيجوزُ عقلًا تناقضُ مراداتِهِما كأنْ يُرِيدَ أحدُهُمَا وجودَ شَىْءٍ ويُرِيدَ الآخرُ عدمَهُ فى الوقتِ نفسِهِ فيستحيلُ تَنَفُّذُ إرادتَيْهِمَا ويستحيلُ عدمُ تنفذِ إرادتَيْهِمَا وإذا تنفذتْ إرادةُ أحدِهِمَا ولم تَنْفُذْ إرادةُ الآخرِ فالذِى لم تَنْفُذْ إرادته عاجزٌ ليس إلـٰهًا وكُلُّ ذٰلك إنما هو شرحٌ وبيانٌ للآيةِ الآنفةِ الذكرِ (و)لنحو (**قولِهِ عزَّ وجلَّ** ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَـٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ [و]) مرجعُهُ أيضًا (**إلى قولِهِ عزَّ وجلَّ** ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ (**وكلامُ المُتَكلِّمِين فِى الحجاجِ فِى توحيدِ اللهِ إنما مرجعه إلى هـٰذه الآيات التِى ذكرناها**) ونحوِها وعليها

أيضًا تدور حجتنا على القدرية الذين يزعمونَ وجودَ شركاءَ لله تعالى فِى التخليقِ تَقَدَّسَ الله عما يقولون ۞

(فكذلك سائر الكلام فِى تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القُرْءَانِ) وإذا تتبّع الشخص ءَايَاتِ القرءان متأمِّلًا وَجَدَ ما أخبر عنه الأشعرىُّ فيها **(فكذٰلك)** أىْ على هذا المنهج يَجْرِى **(الكلام فِى جواز البعث واستحالته الذِى قد اختلف عقلاء العرب ومن قبلهم من غيرهم)** كالفلاسفة فيه فأقرَّ به قسم وأنكره كثير منهم **(حتى تَعَجَّبُوا مِن جواز ذلك فقالوا ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾)** يعنون أنه لا يكون **(و)مثلُهُ (قولُهُمْ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾)** ومعنى هيهات الاستبعاد **(وقولُهُمْ ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾)** وهو استفهام يُراد منه الإنكار **(وقولُهُ تعالى)** أىْ قول القائل منهم فِى ما أخبر عنه الله تعالى **(﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾)** أىْ مبعوثون و**(فِى نحو هذا الكلامِ منهم)** أىْ ومثلُ هذا الكلامِ منهم **(إنما وَرَدَ)** مَسُوقًا ومقرونًا **(بالحجاج فِى جواز البعث بعد الموت فِى القُرْءَانِ تأكيدًا لجواز ذلك فِى العقول وعَلَّمَ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم ولقَّنَهُ الحِجَاجَ عليهم فِى إنكارِهِمُ البعثَ من وجهين على طائفتينِ منهم طائفة أقرتْ بالخَلْقِ الأول وأنكرتِ الثانِـىَ وطائفة جحدتْ ذٰلك)** أىْ جَحَدَتِ الخَلْقَ الأول كما أنكرتِ الثانِـىَ **(وقالتْ بقدم العالم فاحتج على**

المُقِرِّ منها بالخَلْقِ الأول بقوله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ ﴾ وبقوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ ﴾ وبقوله ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فَنَبَّهَهُمْ بهذه الآياتِ على أنَّ من قدر أنْ يفعلَ فعلًا على غيرِ مثالٍ سابقٍ فهو أَقْدَرُ) عندكم على (أنْ يفعلَ فعلًا مُحْدَثًا) أىْ حَدِيثًا على مِثالٍ سَبَقَ وقوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أىْ (فهو أهونُ عليه فِى ما بينكم) على حسب ما عهدتم (و)فِى (تَعارُفِكُمْ) أىْ فِى ما أَلِفْتُمْ وعهدتم وتعارفتم عليه من أعمالكم أنَّ مَنْ فعل فعلًا أَوَّلَ مَرَّةٍ كانتْ إعادتُهُ أهونَ عليه وأسهلَ فينبغِى أنْ يحملكم هٰذا الأمرُ الذِى عرفتموه فيكم بالحِسِّ على أن لا تَستبعدوا أمرَ البعثِ وأنَّ مَنْ أحدثَ الـخَلْقَ الأولَ فأخرج البشرَ من العدم إلى الوجود وخصَّهُمْ بالحياةِ قادرٌ على أنْ يُعيدهم بعدَ بِلاهُمْ فَإنَّ فِى عقولكم أنَّ إعادةَ شَىْءٍ إلى شَىْءٍ كانَ ووُجِدَ سابقًا أهونُ من ابتدائِهِ إلى شَىْءٍ لم يَكُنْ وليس معنى الآيةِ أن هناك فعلًا هو أسهل مِنْ فعلٍ على الله تعالى أو أنَّ الله يجد مشقةً فِى أيِ فعلٍ من الأفعال كما قال الإمامُ الأشعرىُّ رحمه الله (فأمَّا البارئُ جلَّ ثناؤُهُ وتقدسَتْ أسماؤه فليس خَلْقُ شَىْءٍ بأهونَ عليه من الآخر) بحيث يجد مشقةً فِى أحدهما ولا يجدُها فِى الآخرِ أو بحيث يجدُ مشقةً فِى أحدهما دونَ مشقةِ الآخر وذلك لأنَّ فِعْلَ الرَّبِّ جلَّ وعزَّ ليس بمباشرةٍ ولا بآلةٍ أو واسطةٍ بل يُوجَدُ ما

أراد سبحانه بمجرَّدِ تَعَلُّقِ علمِهِ الأزليّ ومشيئته الأزليةِ وقدرتِهِ الأزليَّةِ وتخليقِهِ الأزليّ بإيجاده، قال الإمامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عنه فيما رواه البيهقِيُّ رحمه الله معناه هو أهون عليه فِي العبرة عندكم لما كان يقول للشيْءِ كُنْ فيخرج مفصلًا بعينيه وأذنيه وسمعه ومفاصله وما خلق اللَّه فيه مِن العُرُوق فهذا فِي العبرة أشدُّ من أنْ يقولَ لشيْءٍ قد كان عُدْ إلى ما كنتَ قال الشَّافِعِيُّ رحمه الله فهو سبحانه وتعالى إنما هو أهون عليه فِي العبرة عندكم ليس أنَّ شيئًا يَعْظُمُ على الله عز وجل اهـ (**وقد قيل**) **إنَّ** قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي وهو هيّنٌ عليه قاله أبو عُبَيْدَةَ فيما نقله الزجاج عنه فِي تفسيره ورُوِيَ عن ابن عباس[1] ومجاهدٍ[2] وغيرِهما، وقيلَ يَعْنِي وَهُوَ أَسْرَعُ عَلَيْهِ بَدَأَ الخَلْقَ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً قاله يحيى بن سَلَامٍ، وقيل (**إنَّ الهَاءَ فِي أهون عليه إنما هِيَ كنايةٌ للخَلْقِ**) أي تعودُ على الخلقِ أيِ على المخلوقاتِ (**بقدرته**) فكأنه قيل (**إنَّ البعثَ والإعادة أهونُ على أحدِكُمْ وأخفُّ عليه من ابتداءِ خلقه لأنَّ ابتداءَ خَلْقِهِ إنما يكون بالولادة والتربية وقطع السرة والقِمَاطِ**) وهو مَا يُفْعَلُ بالصَّبِيّ فِي المَهْدِ وَفِي غَيْرِ المَهْد إذا ضُمَّ أَعضاؤُه إِلى جَسَدِه وَجَنْبَيْه ثم لُفَّتْ عَلَيْهِ خرقة عريضةٌ (**وخروجِ الأسنانِ**

---

(١) قوله (ورُوِيَ عن ابن عباس) رواه ابن جرير فِي تفسير سورة الروم. مصنف.

(٢) قوله (ومجاهد) رواه البيهقيُّ فِي الأسماء والصفات. مصنف.

وغيرِ ذلك من الآيات) أيِ المَعَالِمِ (المُوجِعَةِ المُؤْلِمَةِ) إلى أن يصير تامَّ الخلقة شديدها (وإعادته إنما تكون دفعةً واحدةً ليس فيها مِن ذلك شَىْءٌ فَهو أهونُ عليه من ابتدائِهِ) فإنه لا يَمُرُّ فِى كُلِّ أطوارِ الولادة والنموِّ قاله الزجَّاجُ فِى معانِى القرءَانِ (فهذا ما احتجَّ به على الطائفة المقرة بالخَلْقِ الأول) وهى حجةٌ ملزمةٌ قريبةُ المَأْخَذِ سهلةُ الفهم ۝

(وأمَّا الطائفة التِى أنكرتِ الخلق الأول والثانِـىَ وقالتْ بقدم العالم فإنما دخلت عليهم شبهةٌ) فِى أمرِ البعثِ (بأن قالوا وجدنا الحياة رطبةً حارةً) أىْ وجدنا أنَّ شأنَ ذِى الرُّوحِ الحَيِّ أنْ يكونَ رطبًا حارًّا قالوا (و)وجدنا (الموتَ باردًا يابسًا وهو مِنْ طَبْعِ الترابِ) أىْ وجدنا طبع الميت كطبع التراب كلاهما بارد يابس قالوا (فكيف يجوز أن يُجمعَ بين الحياةِ والتراب والعظام النَّخِرَةِ) أى كيف توجَدُ الحياةُ الرطبةُ الحارةُ مجاورةً وخارجةً من التراب البارد اليابس (فيصيرُ) المبعوث (خلقًا سويًّا) لا سيما (والضدانِ لا يجتمعان) قال (فأنكروا البعث من هذه الجهة) وإنما حَمَلَهُمْ على سلوكِ هذا المَهْيَعِ واعتقادِ هذا الرَّأْيِ الضعيفِ إنكارُهُمْ للخالق تبارك وتعالى كما يفعل إخوانُهُمْ فلاسفةُ العصر ومُدَّعُو الإِلْمَامِ بالعلوم الطبيعية حيث يُفَسِّرُونَ كثيرًا من الأمور بما لا طائلَ تَحْتَهُ وبأضعفِ التعليلاتِ بسبب إعراضهم عن الإيمان بالله تعالى. وردَّ الإمام أبو الحسن رحمه

الله مقالتهم فقال **(ولَعَمْرِى إن الضِّدَّيْنِ لا يجتمعان فى محلٍّ واحدٍ ولا على الجُملة ولا فِى الموجود فِى المَحَلِّ)** الواحدِ أىْ إنَّ الضِّدَّيْنِ لا يَجتمعان على الجُملة بحيثُ يُحكَمُ بإطلاقِ اجتماعِهِما ولا بأنهما يجتمعانِ فى ءَانٍ واحدٍ فِى المَحَلِّ الواحدِ نفسِهِ فلا يجتمعُ جسمانِ فِى حَيِّزٍ واحِدٍ ولا باجتماعِ صفتينِ متنافيتينِ فِى موصوفٍ واحدٍ فلا يصحُّ أن يكونَ الجسمُ الواحد باردًا وحارًّا فِى ءَانٍ أو متحركًا وساكنًا فِى ءَانٍ أو أبيضَ وأسودَ فِى ءَانٍ **(ولكنه يصحُّ وجودُهُما)** أى الضدين **(فِى محلين على سبيل المجاورة)** بأن يجاورَ جزءٌ حارٌّ جزءًا باردًا ويجاور جزءٌ متحركٌ جزءًا ساكنًا ويجاورَ جزءٌ أبيضُ جُزْءًا أسودَ ويرشحَ ماءٌ سائلٌ من خشبٍ صُلْبٍ وينبعَ ماءٌ زلالٌ من صخرٍ صُلْبٍ **(فاحتجَّ اللهُ تعالى عليهم)** إيضاحًا لذلك **(بأن قال ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فَرَدَّهُمُ الله عزَّ وجلَّ فِى ذلك إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرِّها ويُبْسِهَا من الشجر الأخضر على بَرْدِها ورُطوبتها)** فإنَّ العرب كانوا يعرفون بالحسِّ والمشاهدةِ أنَّ العُود الأخضر من المَرْخِ يُحَكُّ بالعودِ من العَفَارِ فيقدح ذلكَ النارَ ويُورِيهَا مع ما فيه من الرطوبةِ قال فِى تاج العروس وَفِى المثَلِ فِى كلِّ شجرةٍ نارٌ واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار أيِ استفْضَلَ أيِ اقتَدَحَ على الهُوَيْنَى اهـ قال القرطبىُّ فى تفسيره فالعَفَارُ الزَّنْدُ وهو الأعلى والمَرْخُ

الزَّنْدَةُ وهِيَ الأسفلُ يُؤْخَذُ منها غُصنانِ مثل المِسْوَاكَيْنِ يقطران ماءً فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار اهـ فهم يعرفون بالمشاهدة والحسّ خروج الحارِّ اليابس من الرطب البارد ومثلُ ذلك بعثُ الإنسان حارًّا رطبًا من التراب اليابس البارد (فَجَعَلَ) اللهُ تعالى (جوازَ النشأة الأولى دليلًا على جواز النشأة الآخرة لأنها دليلٌ على جوازِ مجاورةِ الحياةِ الترابَ والعظامَ النَّخِرَةَ فيجعلها[1]) اللهُ (خَلْقًا سويًّا) وقد قال (﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾) ومن هنا قال المتكلمون مِن أهل الإسلام إنَّ جوازَ صفةٍ ومعنًى على شيْءٍ يقتضِي جوازَ هذه الصفةِ وهذا المعنى على شبيهِ ذلك الشَّيْءِ ونظيرِهِ وإذا جاز خروجُ النارِ من البارد وعودةُ الأجساد المتفرقة إلى الاجتماع لم تكنِ الأسبابُ خالقةً لِمُسَبَّبَاتِهَا بحسب طبائعِهَا إذْ ليست البرودةُ علةً للحرارةِ ولا التفرقُ علةً للاجتماع، ومِمَّا هو مُشَاهَدٌ من هذا القَبِيل فِي أيامنا حصولُ الاحتراقِ من شدةِ بُرُودَةِ غازِ النيتروجين أو الآزوت وغيرُ ذٰلك مِمَّا شاع شهوده ⊙

(وأما ما يتكلم به المتكلمون من أنَّ للحوادثِ أَوَّلًا وردُّهُم على الدَّهريةِ) أي نقضُهُمْ زَعْمَ الدَّهريَّةِ (أَنَّهُ لا حركةَ إلا وقبلها حركةٌ ولا يومَ إلا وقبله يومٌ و)مثلُهُ (الكلامُ على من قال ما مِن

(١) قوله (فيجعلها) أنسبُ للسياقِ وأمَّا فِي النسخةِ الخطيةِ فالمُثْبَتُ (فجعلها). سمير.

جُزْءٍ إلا وله نصفٌ لا إلى غاية) أىْ لا إلى نهايةٍ **(فقد وَجَدْنا أَصْلَ)** بيانِ بطلانِ **(ذلك فِى)** ما رواه الشيخانِ مِن **(سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسَلَّمَ حين قال لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ)** اهـ فَنَفَى بذلك أنْ يكونَ انتقالُ المَرَضِ بِطَبْعٍ فيه كما نَفَى التَّطَيُّرَ الذى كانَ يعتقدُهُ الجاهليُّونَ ذلك أنَّ أحدَهُمْ كان إذا خَرَجَ فَنَفَّرَ طائرًا مثلًا فطار إلى جهة اليسار اعتقد أنَّ حاجته لا تُقْضَى فرجع من طريقِهِ **(فقال أعرابِىٌّ)** بعدما سَمِعَ الحديثَ مستفهمًا ومُتَبَيِّنًا **(فما بالُ الإبلِ)** فِى سلامتها مِن المرض **(كأنها الظِّبَاءُ)** جمع ظَبْىٍ وهو الغزالُ الكبيرُ **(تدخلُ فِى الإبلِ الجَرْبَى فتجربُ)** أىْ فقد انتقل المرض بحسب الظاهر من المُصَابَةِ به إلى السليمة **(فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم فمن أعدَى الأولَ)** يعنِى بذلك أنَّ الإصابة بالمرض لو فُرِضَ أنها بالانتقالِ مِن المريض إلى الصحيح فإنَّ الرجوع بذلك لا بُدَّ أنْ يَنْتَهِىَ إلى بعيرٍ أوَّلَ لم ينتقلِ المرضُ إليه من أحدٍ قبلَهُ فَيَبْطُلُ القولُ بأنَّ الإصابة بالمرض تكون بانتقاله من مُمْرِضٍ إلى مُصِحٍّ وفيه كما هو ظاهرٌ إبطالُ تسلسل الحوادث إلى ما لا أولَ له فِى جهةِ المَاضِى إذ لو جاز ذلك لما جزم النبىُّ صلى الله عليه وسلم بوجودِ الأولِ ولَمَا صَحَّ احتجاجُهُ على الأعرابىِّ **(فسكت الأعرابىُّ لَمَّا أفحمه)** النبىُّ صلى الله عليه وسلم **(بالحجة المعقولة)** وقد ضرب مُتَكَلِّمُو الإسلامِ مَثَلًا يُظْهِرُ بطلانَ القولِ بالتسلسلِ إلى ما لا أولَ له فى جهة المَاضِى

بقولِهِمْ إنَّ مَثَلَ هذا كَمَثَلِ مَنْ يقول لآخر لا أُعطيكَ درهمًا حتى أعطيَكَ قَبْلَهُ درهمًا فإنَّ حصوله على الدرهم الموعود لا يقع أبدًا فالزعمُ بأنَّ الحوادثَ لا انتهاءَ لَهَا فِى جهةِ الماضِى يُؤَدِّى إلى إبطالِ وجودِ الحادثِ الحاضِرِ ولٰكِنِ الحادثُ الحاضِرُ ثابتُ الوجودِ بالحِسّ فثبتَ بُطْلَانُ القولِ بأنَّ الحوادث لا أول لَهَا وأنَّ العالم أزليٌّ غيرُ مخلوقٍ لله وذلك بدلالة العقل المُؤَيَّدِ باحتجاج رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومِنْ هنا يُعلم أنَّ مَنِ انتسب إلى الإسلام وقال بِقِدَمِ العالم بلا أولٍ بِجِنْسِهِ أو بأفرادِهِ كابن تيمية ومَنْ سَلَكَ مسلكه هو فِى الحقيقةِ مُكَذِّبٌ للنبيِّ رادٌّ عليه غيرُ مؤمنٍ بدينه بل هو لاحقٌ بالدَّهْرِيَّةِ كما نصَّ عليه الإمامُ أبو الحسن رحمه الله تعالى ۝

وعلى وِزانِ ما تقدم يُرَدُّ على من زعم أن كل جسم يقبل الانقسام إلى نصفين ثم كلُّ نصفٍ إلى نصفينِ وهكذا لا إلى ءَاخِرٍ قال علماؤنا جزاهم الله خيرًا القائلُ بمثل هذا يلزمه أن تكون الطريق بين موضعين مُرَكَّبَةً مِمَّا لا نهايةَ له مِن الأجزاءِ فعلى قوله إذا أراد الأرنبُ أن يقطع المَسَافةَ التِى بين الموضعين لا يستطيعُ أنْ يسبقَ السُّلَحْفَاةَ فِى ذلك لأنه يحتاج أنْ يَقطعَ ما لا نهايةَ له مِنَ الأجزاءِ ويَنْتَهِىَ منها وقَطْعُ أيِ انتهاءُ ما لا نهاية له مستحيلٌ ولٰكِنِ الحِسُّ يشهد أنَّ الأرنبَ يَسْبِقُ السُّلَحْفَاةَ فبطل ما زعموا ۝

قال الإمام الأشعرىُّ رحمه الله (**وكذلك نقول لِمَنْ زعم أنه لا حركةَ إلا وقبلها حركةٌ لو كان الأمرُ هكذا لم تَحدثْ**) أىْ لم توجد (**منها واحدةٌ لأن ما**) فُرِضَ (**لا نهاية له**) فِى جهةِ المَاضِى يكون (**لا حَدَثَ لَهُ**) أىْ يستحيلُ حُدُوثُهُ. فقد أظهرَ الأشعرىُّ رَضِىَ الله عنه أنَّ الكلامَ الذِى قَرَّرَهُ علماءُ الإسلامِ مأخوذٌ من نصوصِ كتابِ اللهِ المنزلِ ونبيِّهِ المُرْسَلِ صلى الله عليه وسلم فلا وجهَ للإنكار عليهم. ثم إنَه زاد الأمر بيانًا فقال رحمه الله (**وكذلك لَمَّا قال الرجلُ يا نبيَّ الله إنَّ امرأتِى ولدتْ غلامًا أسود وعَرَّضَ بِنفْيِهِ**) أىْ أشار بذلك ولَمَّحَ إلى نَفْىِ انتسابِهِ إليه فإنَّهُ لم يكنْ أسودَ ولا كانت زَوجُه سوداءَ (**فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل فقال نعم قال فما ألوانها قال حُمْر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فيها من**) جملٍ (**أورق**) أىْ مُغْبَرٍّ لَيْسَ بناصِعِ البياضِ كلونِ الرَّمَادِ وسُمِّيَتِ الحَمَامَةُ وَرْقَاءَ لذَلِكَ (**قال نعم إنَّ فيها وُرْقًا قال فأَنَّى ذٰلك**) أىْ بأَىِّ سببٍ حصلَ ذلك (**قال**) الرجل (**لعلَّ عرقًا نزعَهُ**) أىْ لعلَّ جَملًا فِى أسلافِ جِمَالِى كان أورقَ فأَثَّرَ ذلك فشابَهَهُ بعضُها ورجعَتْ فِى اللَّوْنِ إليه قال ابنُ الجوزِىِّ فِى كَشْفِ المُشْكِلِ مِنْ حديثِ الصَّحِيحَيْنِ يُقَال نَزَعَ إِلَيْهِ فِى الشَّبَهِ إِذا أشبهَهُ والعِرْقُ الأَصْلُ كَأَنَّهُ نَزَعَ فِى الشَّبَهِ إِلَى أجدادِهِ مِنْ جِهَةِ الأَبِ أَو الأُمِّ اهـ (**فقال النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم ولعلَّ وَلَدَكَ نَزعَهُ عِرْقٌ**) يعنِى لعلَّهُ

كان فِى أجدادِكَ أو أجدادِ امرأتِكَ مَنْ كان أسودَ فَوُلِدَ وَلَدُكَ كذلكَ لِهَـٰذا السببِ والحديثُ رواهُ البخارِىُّ ۝ **(فهـٰذا ما عَلَّمَ اللهُ نبيَّهُ)** صلى الله عليه وءالِهِ وسلَّمَ **(مِنْ رَدِّ الشَّىْءِ إلى شَكْلِهِ)** أىْ شبيهه **(ونظيرِهِ وهو أصلٌ لنا)** أهل السنة **(فِى سائرِ ما نَحْكُمُ به من)** الأحكام على **(الشبيهِ والنَّظِيرِ)** فإنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم أثبتَ جوازَ نَزْعِ العِرْقِ للإنسان بجوازِ ذلكَ فِى الإبل مع ما بين الناس والإبل من الافتراق العظيم وذلك لوجود الشَّبَهِ بين الجنسين من حيث إنَّ كُلًّا منهما أجسامٌ فيها أرواح ولَهَا أعراقٌ وتتناسل بواسطة الجماع والإمناء والحَمْلِ وهذا مصداقُ قولِ أهل السنة إنَّ المُتَشَابِهَيْنِ يجوزُ عليهما ما يجوزُ على أحدهما **(وبذلك نحتجُّ على مَنْ قال إنَّ الله تعالى وتقدَّسَ يُشْبِهُ المخلوقاتِ وهو جسمٌ)** وهو الذِى يُسَمُّونه المُجَسِّمَ **(بأن نقول له لو كان يُشبه شيئًا مِن الأشياءِ لكانَ لا يخلو من أن يكونَ يُشبهه من كلِّ جهاته أو يُشبهه من بعضِ جهاته فإنْ كان يشبهُهُ مِن كلِّ جهاته وجب أن يكون مُـحْدَثًا)** مِثْلَهُ **(مِنْ كلِّ جهاته)** أىْ لأنَّ كلَّ جهة من هذه الجهات تدل على حدوث ما قامتْ به وعلى أنَّ ما اتصف بها فهو مخلوق **(وإن كانَ يشبهه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثًا مثلها من حيثُ أَشْبَهَهُ)** أىْ وإنْ كانتْ مشابهتُهُ له مِنْ جهةٍ واحدةٍ فإنَّها تَدُلُّ على كونه مخلوقًا مُـحْدَثًا **(لأنَّ كلَّ مُشْتَبِهَيْنِ حكمُهُمَا واحدٌ فِى ما اشتبها له)** أىْ بما أنَّ وَجْهَ

الشَّبَهِ يَقتضِي اتصافَ ما قام به بصفةٍ ومعنًى يلزمُ منه فوُجودُ هذا الوجه فِي الشَّبيهِ يَقتضِي اتصافَهُ بتلك الصفةِ وذلك المعنَى أيضًا فمن نسب إلى الله تعالى أنه جسمٌ أو نسبَ إليه صفاتِ الأجسام فكأنه قال إنَّ الله تعالى مخلوق وذلك لأنَّ الجسميةَ وسائرَ صفات الجسم تَقْتَضِي حدوث ما تقوم به (**ويستحيل أن يكون المحدَثُ قديمًا والقديمُ محدَثًا**) أيْ فيستحيل أن يكون الخالق عزَّ وجلَّ مُحْدَثًا فانتفتْ بذلك مشابهته للمخلوق من أيِّ وجه من الوجوه (**وقد قال تعالى وتقدس** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾) أيْ لا يشبهه شَىْءٌ بأيِّ وَجْهٍ مِن الوجوه (**وقال تعالى وتقَدَّسَ** ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾) أى ليس له عزَّ وجلَّ نظيرٌ ولا شريكٌ ⊙ وهٰذا الذِى ذكرَهُ الإمامُ أبو الحسنِ هو منهجُ أهلِ الحديثِ الذينَ هم حقًّا أهلُهُ ⊙ قال الإمامُ الحافظُ المجتهدُ المفسِّرُ بالأثَرِ أبو جعفرٍ محمدُ بنُ جريرٍ الطبرِيُّ رحمه اللهُ فِى كتابِ تاريخ الأمم والملوكِ له فِى بابِ القولِ فِى الدّلالةِ على أنَّ اللهَ القديمُ الأولُ قبلَ كلِّ شَىْءٍ وأنه هو المُحْدِثُ كُلَّ شَىْءٍ بقدرتِهِ تعالى ذِكْرُهُ ما نصُّهُ فمِنَ الدّلالةِ على ذٰلكَ أنَّهُ لا شَىْءَ فِى العالَمِ مُشاهَدٌ إلَّا جسمٌ أو قائمٌ بجسمٍ وأنَّهُ لا جِسْمَ إلَّا مفترقٌ أو مجتمعٌ وأنَّهُ لا مفترقَ منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الائْتِلافُ إلى غيرِهِ مِنْ أشكالِهِ ولا مجتمعَ منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الافتِراقُ وأنَّهُ

متى عُدِمَ أحدهُما[1] عُدِمَ الآخَرُ معه وأَنَّهُ إذا اجتمعَ الجُزءانِ منه بعد الافتراقِ فمعلومٌ أنَّ اجتماعَهُما حادثٌ فيهما بعد أنْ لمْ يكنْ وأنَّ الافتراقَ إذا حدثَ فيهما بعد الاجتماع فمعلومٌ أنَّ الافتراقَ فيهما حادثٌ بعد أنْ لمْ يكنْ. وإذا كانَ الأمرُ فِى ما فِى العالَمِ مِنْ شَىْءٍ كذٰلكَ وكان حكمُ ما لمْ يُشاهَدْ وما هو مِنْ جنسِ ما شاهَدْنا فِى معنَى جسمٍ أو قائمٍ بجسمٍ وكانَ ما لمْ يَخْلُ مِنَ الحَدَثِ لا شكَّ أنَّهُ مُحدَثٌ بتأليفِ مؤلِّفٍ له إنْ كانَ مجتمعًا وتفريقِ مفرِّقٍ له إنْ كانَ مفترِقًا وكانَ معلومًا بذٰلكَ أنَّ جامعَ ذٰلكَ إنْ كانَ مجتمعًا ومفرِّقَهُ إنْ كانَ مفترقًا مَنْ لا يُشبِهُهُ ومَنْ لا يجوزُ عليه الاجتماعُ والافتراقُ وهو الواحدُ القادرُ الجامعُ بينَ المُختلِفاتِ الذِى لا يُشْبِهُهُ شَىْءٌ وهو على كُلِّ شَىْءٍ قديرٌ، فبَيِّنٌ بِما وصَفْنا أنَّ بارِئَ الأشياءِ ومُحْدِثَها كانَ قبلَ كُلِّ شَىْءٍ وأنَّ الليلَ والنهارَ والزمانَ والساعاتِ مُحْدَثَاتٌ وأنَّ مُحدِثَها الذِى يُدَبِّرُها ويُصَرِّفُها قبلَها اهـ ثم قال ما نصُّهُ فتبيَّنَ أنَّ القديمَ بارِئَ الأشياءِ وصانعَها هو الواحدُ الذِى كانَ قبلَ كُلِّ شَىْءٍ وهو الكائنُ بعدَ كُلِّ شَىْءٍ والأولُ قبلَ كُلِّ شَىْءٍ والآخرُ بعد كلِّ شَىْءٍ وأنَّهُ كانَ ولا وقتَ ولا زمانَ ولا ليلَ ولا نهارَ ولا ظلمةَ ولا نورَ ولا سماءَ ولا أرضَ ولا شمسَ ولا قمرَ ولا نجومَ وأنَّ كُلَّ شَىْءٍ سواهُ مُحدَثٌ مدبَّرٌ مصنوعٌ انفرَدَ بالخَلْقِ جميعِهِ بغيرِ شريكٍ ولا

---

(1) قوله (متَى عُدِمَ أحدُهُما) أىْ تَوَهُّمُ الافتراقِ أو توهُّمُ الاجتماعِ اهـ سمير.

مُعينٍ ولا ظهيرٍ سبحانَهُ مِنْ قادرٍ قاهرٍ اهـ

قال أبو الحسنِ رَضِيَ اللهُ عنه (**وأما الأصل بأنَّ للجسمِ نهايةً وأنَّ الجُزْءَ لا ينقسم فقوله عز وجلَّ اسْمُهُ**) فِي سورةِ يٰس (﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾) أىْ أنَّ كلَّ ما يكون إلى يوم القيامة أحصاه الله تعالى وكتبَ ذلك وعددَهُ فِى اللوح المحفوظ (**ومحالٌ إحصاء ما لا نهايةَ له**) فلو كانتِ الأجسام تنقسم إلى ما لا نهايةَ لَاسْتَحَالَ إحصاءُ أجزائها ولَمَا كانتْ محصاةً فِى اللوحِ المحفوظِ ولكان قول الله تعالى غيرَ صدقٍ ولا حقٍّ وهذا مستحيلٌ فثبتَ أنَّ لأجزاء كل جسم نهايةً تَنْتَهِى إليها وعددًا معيَّنًا يعلمه الله عز وجل وأنَّ التجزُّؤَ فِى الأجسامِ لا بُدَّ أنْ يَنتهِىَ إلى جُزْءٍ تناهَى صِغَرُهُ فلا يتجزَّأُ (**ومحالٌ أنْ يكونَ**) هـٰذا (**الشَّىْءُ الواحدُ**) الذِى بلغ النهاية فى الصغر أىِ الجوهرُ الفردُ (**ينقسم لأن هذا يوجب أنْ يكونا شيئين**) مُنْضَمَّيْنِ لا شيئًا واحدًا (**و**)يكونَ القُرْءَانُ (**قد أخبر أنَّ العددَ وقعَ عليهما**) على أنهما واحدٌ وهو خلافُ الحقيقةِ فِى أنهما اثنانِ وهذا لا يجوزُ أن يكونَ فِى كتابِ اللهِ تعالَى وهو دعوَى اتِّصافِ الربِّ تعالى بالجهلِ، فالخلاصة أنَّ ما قرَّرَهُ علماء الكلام من إثباتِ الجزء الذى لا يتجزأ وبطلانِ القول بِتَجَزُّؤِ الجسم إلى ما لا نهاية له أمر ذكره القرءانُ واقتضَتْهُ نصوصُهُ فلا معنَى لإنكارِ من يُنْكِرُهُ ويمنعُ إيضاحَهُ ۝

قال رحمه اللهُ (وأما الأصلُ فِى أنَّ المُحْدِثَ للعالَمِ) أىْ خالقه (يجب) أىْ يلزمُ (أنْ يَتَأَتَّـى له الفعل) أىْ أن يفعلَ أى يخلقَ ويوجِدَ (نحوَ) أىْ على حسب (قَصدِهِ) أىْ مشيئته (واختيارِهِ و) يلزم أن (تَنْتَفِىَ عنه كراهتُهُ) أىْ أنْ يكونَ غيرَ شَاءٍ لعدمِهِ بحيثُ لا يوجدُ إلا ما شاء وجوده فِى الوقت الذِى شاء وجوده فيه وأنَّ ما لم يشأْ وجوده لا يوجد أبدًا وهو أمرٌ أوضحه كتابُ الله تعالى فِى ءَايَاتٍ كثيرة (فقوله تعالى) فِى سورة الواقعة (﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾) أىْ تتمنَّونَهُ مِنَ الولدِ (﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ مَا﴾) أىْ تُصَوِّرُونَهُ ولدًا (﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾) فيه خطابٌ للكفار بأنَّ الواحد منهم مع تَمَنِّيهِ للولد وإرادته لوجوده وإمنائِهِ إذا جامعَ فهو عاجزٌ عن خَلْقِ الولدِ منهُ وتصويرِهِ (فلم يستطيعوا أنْ يقولوا بحجةٍ إنهم) هم (يخلقون) المولودَ على حسبِ إرادتهم سواءٌ وقتًا أو هيئةً وشكلًا هذا (مع تَمَنِّيهِمْ) ذلك (الولدَ فلا يكونُ) الولدُ أىْ لا يوجدُ ولو أرادوه هُمْ (مع كراهيَتِهِ له) أىْ مع مشيئةِ اللهِ عدمَ وجودِهِ (فَنَبَّهَهُمْ) على عجزهم بعلامةِ عدمِ نفاذِ مشيئتِهِمْ فتبَيَّنَ (أنَّ الخالق هو مَنْ يتأتَّى منه ا لمخلوقات) أىِ الذِى يُوجِدُ المخلوقاتِ (على) حَسَبِ (قَصْدِهِ) أىْ مَشِيئَتِهِ فلا بُدَّ أنْ تكونَ مشيئتُهُ تعالَى نافذةً فَمَا شاءَ كانَ ومَا لَمْ يشَأْ لَمْ يَكُنْ إذْ لا يكونُ الإلـٰهُ مقهورًا أو عاجزًا وإنما هـٰذا سِمَةُ المَخلوقِ المَرْبُوبِ ◉

تنبيهٌ. قد يَستعمل بعضُ علماءِ الكلامِ لفظَ القَصْدِ فِى حقِّ الله

تعالى بمعنى المشيئة كما فِى تأويلاتِ الماتريديِّ وغيرِهِ وكان شيخُنا رحمه الله تعالى يجتنبُ ذلك منعًا للإيهام لا سيما فِى هٰذه الأعصار التِى ضعفت فيها كثيرٌ من الأفهامِ أو كلَّتْ وأما الأشعرىُّ رحمه الله فإنه لم يَكُنْ يخشَى ذلك فاستعمله.

وكذلك لفظُ الكراهيةِ فإنَّ علماءَ التوحيدِ قد يستعملونَهُ بمعنى مشيئةِ عدمِ الحُدُوثِ كما فِى مجردِ مقالاتِ الأشعرىِّ وغيرِهِ وهم يستعملونه أيضًا بالمعنى المقابِلِ للرِّضَى والمحبةِ وبمعنَى الكونِ مَقْهورًا وربما غَمُضَ التفريقُ بين الاستعمالاتِ على كثيرٍ مِن الناس فِى أيامنا فينبغِى على مَنْ ذهبَ إلى استعمالِهِ بمعنَى مشيئةِ عدمِ الحُدُوثِ أنْ يُرَاعِىَ حالَ سامِعِيهِ وأفهامَهُمْ فإذا خَشِىَ اللَّبْسَ عليهم اجتَنَبَ ذٰلك. والله أعلم ◉

قال الإمامُ أبو الحسن رحمه الله **(وأما أصلُنا فِى المناقضة على الخصم فِى النَّظَرِ)** أىْ فِى إظهار تناقضه إذا جادلناه **(فمأخوذٌ** أيضًا **(من سنةِ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)** أى طريقته عليه الصلاة والسلام وشرعِهِ الذِى جاء به فليس بدعة قبيحة **(و)**إنما **(ذلك تعليم الله عزَّ وجَلَّ إياه حين لَقِىَ الحبر)** اليهودىَّ **(السمينَ)** واسمُهُ مالكُ بنُ الصَّيف **(فقال له نشدتك بالله هل تجد فيما أنزل الله تعالى من التوراة أنَّ اللهَ تعالى يُبْغِضُ الحبرَ السمينَ)** قال الزجاجُ أىْ مِنْ كثرةِ التَّنَعُّمِ وعدمِ التَّعَبُّدِ قالَ عليه

الصلاة والسلام وقد سمنت مِمَّا أطعمتك يهود وكان هذا الرجل مُعَظَّمًا عند اليهود مقدَّمًا فيهم يرجعون إليه فِى أمورهم (**فغضب الحبرُ حين عَيَّرَهُ**) صلَّى اللهُ عليه وسلم (**بذلك فقال**) من شدة غضبه (**ما أنزل الله على بشرٍ مِنْ شَىْءٍ فقال الله تعالى** ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ **الآيَةَ فناقضه عن قُرْبٍ**) أىْ أظهر تناقضه قبل أن يمر طويلُ وقتٍ وذٰلك (**لأن التوراة**) بمعنى الكتاب المنزل (**شَىْءٌ وموسى بشر وقد كان الحبرُ مُقِرًّا بأن الله تعالى أنزل التوراة على**) سيدنا (**موسى**) عليه السلام وأعقبَ هذه الحادثةَ غضبُ اليهودِ منه فلمَّا رجعوا إلى المدينةِ عزلوه وجعلوا مكانه كعبَ بنَ الأشرفِ. والحديثُ رواه الطبرىُّ وابن أبِى حاتم وابنُ المنذر وغيرُهُم ۞ (**وكذلك ناقض**) عليه الصلاة والسلام (**الذين زعموا**) من اليهودِ (**أنَّ الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار فقال تعالى**) فِى سورة ءَالِ عِمرانَ (﴿قُلْ﴾) أىْ يا محمدُ (﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾) أىْ إنَّ أسلافكم طلبوا من رسلٍ قبلِى مثلَ ما طلبتم ففعل الرسل ما طلبوا بإذن الله ومع هذا لم يؤمنوا بهم ولم يقبلوا منهم وإنما قتلوهم لأنهم كانوا معاندين مثلكم إذ لم يكن سؤالهم طلبًا للاستبيان (**فناقضهم بذلك**) وفعل عليه الصلاة والسلام ما أمره الله به (**وحاجَّهُمْ**) بهذه الطريقة ۞

قال الإمامُ أبو الحسن رحمه الله (**وأما أصلنا**) أىْ الأصلُ الذِى نرجع إليه (**فِى استدراكِنَا مغالطةَ الخصومِ**) أىْ فِى الاستدراك بإيضاحِ خروجٍ ما لا يدخلُ تحتَ عبارةٍ قلناها أو قاعدةٍ قَرَّرْنَاها إذا غالَطَنا الخصمُ أىْ حاول أن يُمَوِّهَ فيُظْهِرَ أنه نَقَضَ كلامَنَا من غير أن يكون قد أتى فِى الحقيقة بناقضٍ (**فمأخوذٌ من قوله تعالى**) فِى سورةِ الأنبياء (﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾) وتمام الآيات الثلاثِ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (**فإنها لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ**) شَقَّ ذلك على أهل مكةَ قالوا أيشتِمُ ءَالِهَتنا و(**بلغ ذلك عبدَ الله بن الزِّبَعْرَى وكان جَدِلًا خَصِمًا**) أىْ مُحِبًّا للجدال والخصومة من كفار قريش (**فقالَ خصمتُ محمدًا**) أىْ وَجَدْتُ حجةً أُسْكِتُ بها محمدًا (**وربِّ الكعبة فجاء إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ألستَ تزعم أنَّ عيسى وعزيرًا والملائكة [عبادٌ صالحون فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة وهذه النصارى تعبد عيسى عليه السلام وهذه اليهود**

تعبد عُزَيْرًا هل عيسى وعُزير والملائكةُ][١] **حصبُ جهنَّمَ)** يريدُ بذلك أنَّ الآية فيها تعميمُ أنَّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دونِ الله فإنه يكون فى الآخرة فِى جَهَنَّمَ وعيسى وعُزَيْرٌ والملائكةُ عليهم السلام قد عُبِدُوا إذًا فكأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم أنَّ اللهَ أَوْحَى إليه أنَّ هؤلاء عليهم السلام يتعذبونَ فى النار وهو عكس ما صَرَّحَ به الكتاب قبلَ ذلكَ، وفِى بعضِ الرواياتِ أنَّ ابنَ الزِّبَعرَى علَّمَ بعضَ الكفارِ أنْ يُواجِهَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فضجَّ الكُفَّارُ عندما سمعُوا هذا لإظهارِ أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قد خُصِمَ **(فَسَكَتَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم)** استصغارًا لشأنِهم ولشأنِ ابنِ الزِّبَعْرَى **(لا سكوتَ عِيٍّ)** أى جهلٍ **(ولا منقطعٍ)** أىْ عاجزٍ عن الجواب بل **(تعجبًا مِنْ جَهْلِهِ)** وجهلِهِمْ بالحقِّ وعنادِهِم لَهُ **(لأنه)** عربىٌّ فصيحٌ وهم عربٌ فُصَحاءُ و**(ليسَ فِى الآية)** بحسبِ لسانِ العربِ **(ما يُوجِبُ دخولَ عيسى وعزيرٍ والملائكةِ فيها لأنه)** تعالى **(قال وما تعبدون)** ولفظُ ما وإن كان يَدُلُّ على العموم لكنه عامٌّ فِى ما لا يَعقل ولا يُوصَفُ بالعِلْمِ فلا يدخلُ العقلاءُ تحتها فيكون معنَى الآية أنتم أيها المشركون ستكونون وَقُودًا لِـجَهَنَّمَ التِى ستُلْقَى فيها أيضًا أصنامكم وما عبدتُمْ من الجمادات كالشمس

---

(١) ما بين المعقوفتين ممحُوٌّ مِن النسخة الخطيةِ ولكنَّ السياقَ يدُلُّ عليه فهو مثبتٌ بالتقديرِ مِنّى لا بالحرفِ كما هو فِى الأصلِ المخطوط. سمير.

والقمر زيادةً فِى إهانتِكُمْ وتعذيبِكُمْ، ولكن لَمَّا كان بُغْضُ سيدِنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم قد أكلَ قَلْبَ عبد الله بن الزِّبَعْرَى وأَعْمَى حبُّ مخاصمتِهِ والردِّ عليه بصيرتَهُ فَاتَهُ هذا الأمرُ الذِى ما كان يفوتُ عربيًّا فى زمانه، وهذا التوجيهُ للآيةِ ذكرَهُ الطبرىُّ فِى تفسيرِهِ وأبو الليث السمرقندىُّ فِى بحر العلوم وغيرُهُما قال أبو المظفَّرِ ابن السمعانِىّ فِى تفسيرِهِ زَعَمَ قطربٌ وَجَماعَةٌ مِنَ النَّحْوِيين أَنَّ الآيَة مَا تناولت إِلَّا الأَصْنام من حَيْثُ الْعَرَبِيَّة لِأَن الله تَعَالَى قَالَ ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وَهَذَا يُقَال فِيمَا لَا يعقل، فَأَما فِيمَن يعقل فَيُقَال وَمن تعبُدون من دون الله اهـ قال وَأنزل الله أَيْضًا فِى عبد الله بن الزبعرى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ يَعْنِى أَنهم قَالُوا مَا قَالُوا خُصُومَةً ومجادلةً بِالْبَاطِلِ وَإِلَّا فقد عرَفُوا أَنَّ الْمُرَاد هم الأَصْنام اهـ

وذكرَ الإمامُ الأشعرىُّ وجهًا ءاخَرَ وهو أنَّ لفظَ ما كسائرِ ألفاظِ العُمُوم لا تدلُّ على العمومِ بمجردها بل تحتملُ الدلالةَ عليه وتحتملُ الدلالةَ على خلافِهِ أيضًا وإنما تُعرفُ دلالتُها بالقرائنِ (ولم يَقُلْ) اللهُ تعالَى (وكلَّ ما تَعْبُدُونَ مِن دونِ اللهِ) فلمْ يكنْ مع لفظِ ما قرينةٌ يُحملُ لأجلها على العمومِ وقد رُوِىَ أنَّ الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أشارَ إلى الأصنامِ عند تلاوةِ هذه الآية فحُملَ لفظُ ما لأجلِ ذلكَ على خصوصِ الأصنامِ ولمْ يبقَ وجهٌ ليدخلَ تحتها عيسى وعزيرٌ والملائكةُ عليهم السلامُ،

وهذا الوَجْهُ مبنِيٌّ على المَشهور من مذهبِ أبِى الحسنِ رحمه الله مِنَ التَّوَقُّفِ فِى حملِ ألفاظِ العمومِ كَمَنْ ومَا والذينَ وأسماءِ الجموع المعرَّفة بألْ ونحوِ ذلك على العمومِ أو الخصوصِ حتَّى توجدَ قرينةٌ تُحمَلُ لأجلِها على أحدهما وهذا القولُ مرجوحٌ وما ذَهَبَ إليه الطبرىُّ رحمه الله أقوى وأسلمُ، (**وإنما أراد ابن الزِّبَعْرَى مغالطةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لِيُوهِمَ قَوْمَهُ أَنَّهُ قد حاجَّهُ فأنزل الله عز وجل**) زيادة فِى دفع ذلك الإيهام قولَهُ تعالى (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾ **يعنى من المعبود**) أى مِن المَعْبُودِينَ (﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ **فقرأ النبىُّ صلى الله عليه وسلم ذلك**) وفيه كما هو واضح التصريح بأن عيسى وعزيرًا والملائكة ليسوا داخلين (**فضجوا عند ذلك**) أى صاروا يلغطون (**لِئَلَّا يتبين انقطاعهم**) فِى المناظرة (**وغلطهم**) فِى الفَهْمِ (**فقالوا** ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ **يعنون عيسى**) عليه السلام ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ وأرادوا بذلك أَنَّ ءَالِهَتَهُمْ خير من عيسى فكيف يكونُ عيسى مبعدًا عن نار جهنم وتكون ءالِهَتُهُمْ فيها (**فأنزل الله تعالى** ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ **إلى قوله** ﴿ خَصِمُونَ ﴾) أىْ قولَهُ تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ ۝

قال الإمام أبو الحسن (و)لَمْ يكنْ مُرادُنَا مِمَّا سبقَ استيعابَ القواعِدِ بلْ (**كل ما ذكرناه مِنَ الآيِ**) **فِي هذا الجوابِ الثانِي** إنما هو للتمثيلِ فما ذكرناه (**أو لم نَذْكُرْهُ**) مِمَّا يَجرِى مَجْرَاهُ هو (**أصلٌ لنا وحجةٌ لنا فِي الكلام فيما نذكره مِن تفصيلٍ**) مِمَّا يَعْرِضُ وتقتضِى المصلحةُ الدينيةُ الكلامَ فيه (**وإنْ لَمْ تَكُنْ كلُّ مسألةٍ**) مِمَّا يحدث (**معينةً فِي الكتاب والسنة**) لأننا نتبعُ فِي ذلك المنهجَ الذِى سَنَّهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فِي المَسَائِلِ المُشابهةِ التِى كانت فى أيامه ولو كان مثلُ هذا المنهج محرمًا أو مذمومًا أو باطلًا لَمَا سَلَكَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ولَمَا نزلتْ ءَاياتُ القرءان على وَفْقِهِ و(**لأنَّ**) الكلام يكون على حسب ما تقتضيه المصلحة الدينية فإنَّها إنِ اقتضتِ الكلامَ فِي أمرٍ حَسُنَ الكلامُ فيه و(**ما حدث تعيينها من المسائل العقليات**) أيِ التِى تُقام عليها الحجة بالعقل ويُحتاج فيها إلى ذلك (**فِي أيام النبيِّ صلى الله عليه وسلم والصحابةِ قَدْ تكلَّمْنَا فيه**) كما تَكَلَّمُوا فيه على نحوِ ما ذكرناه ولو سَكَتُوا لادَّعَى الخصومُ عَجْزَهُمْ وانقطاعَهُمْ وعدمَ استناد كلامهم إلى حجة ولو تكلموا فِي مسائلَ تُسْتَغْرَبُ لم تكنْ معهودةً فِي أيامهم ولا كان الكلام فيها جاريًا لَقِيلَ هؤلاء متنطعون متكلفون ولنفر الناس منهم وعلى هذا السَّنَنِ جَرَى علماءُ أهلِ السُّنَّةِ نصرهم الله حيث وُجِدَتِ الحاجةُ للكلامِ تكلموا على وَفْقِهَا وأظهروا الحُجَّةَ

وقمعوا المخالفَ وحيثُ لم يُوجَدْ مصلحة فِى الكلام ونُسِبَ المتكلمُ إلى التكلف والتنطع أو عَسُرَ على السامعين فَهْمُ كلامه لم يتكلموا فجعلوا لكل مقامٍ مقالًا مناسبًا جزاهُمُ اللهُ خيرًا وأجزلَ ثَوَابَهُمْ ۝

قال الإمام أبو الحسن رحمه الله **(والجوابُ الثالثُ أنَّ هٰذه المسائلَ التِى سألوا عنها)** هل علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لا وهل تكلم فيها أو لا **(قد علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجهل منها شيئًا مفصَّلًا غير أنها لم تحدث فى أيامه مُعَيَّنَةً فيتكلمَ فيها أو لا يتكلمَ فيها)** أىْ إنَّ سؤالَهُمْ ثُمَّ جوابَهُمْ ثُمَّ ما بَنَوْهُ على ذلكَ واقعٌ فى غيرِ محلِّهِ لأنَّ الأمرَ الذِى حصلَ فى زمنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعَلِمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بحصولهِ فلم يتكلمْ فيهِ يسعُنا نحنُ بناءً على ذلكَ أن لا نتكلمَ فيهِ وأما أمرٌ لم يحدثْ فلم يتكلمْ فيهِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لذلكَ لم يَكُنْ لنا أنْ نَبْنِىَ على مجرّدِ ذلكَ أنهُ يَسَعنا إذا حدثَ عدمُ الكلامِ فيهِ وتقريبُ ذلكَ أنّهُ لم يكنْ فِى زمنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الطَّائراتُ التِى تطيرُ فِى الفضاءِ فلم يتكلمْ فيها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لذلكَ ولا ذَكَرَ حكمَها فهل يجوزُ الاعتراضُ على مَن استعملها وقالَ بجوازها لِمُجَرَّدِ أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لم يذكرْها وهل يَصِحُّ أنْ يُقَالَ فِى هذا المَعْرِضِ لم يَفْعَلْهُ رسولُ الله صلى الله عليه

وسلم فعلينا اجتنابُهُ بل لا يصحُّ ذلكَ ولا يُقْبَلُ وإنما كان يصحُّ لو وُجِدَتْ فِي زمنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فتعمَّدَ اجتنابَها كما حصلَ بالنسبةِ لمصافحةِ النساءِ فإنَّ الرجالَ كانوا يبايعونهُ صلى الله عليه وسلم بالمصافحةِ على ما هوَ الأصلُ فِي البَيعةِ عندَ العربِ فأرادتِ النساءُ مبايعتَه بالمصافحةِ فأبى وقالَ إنِّي لا أصافحُ النساءَ فبنَى العلماءُ على إبائه عندَ ذلكَ المنعَ من مصافحةِ الرجلِ للمرأةِ الأجنبيةِ. والحديثُ رواهُ مالكٌ وأحمدُ والنسائيُّ وغيرُهُم. هـٰذا (**وإنْ كانتْ**) هذهِ المسائلُ لم تحدثْ فِي أيامهِ صلى الله عليه وسلم لكنْ (**أُصُولُهَا موجودةٌ فِي القرءانِ والسُّنَّةِ**) فيجوزُ الرُّجوعُ إلى الأصولِ والكلامُ فيها عندَ حدوثِها (و)ذلكَ على وَفْقِ (**ما حَدَثَ مِنْ شَيْءٍ فيما لهُ تَعَلُّقٌ بالدِّينِ من جهةِ الشّريعةِ**) ولم يكنْ تَكَلَّمَ فيهِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم تفصيلًا (**فقد تَكَلَّمُوا**) أيِ الصّحابةُ (**فيهِ وبحثوا عنهُ وناظروا فيهِ وجادلوا وحاجُّوا كمسائلِ العَولِ**) كما لو تُوُفِّيَتِ امرأةٌ وتركَتْ ورثةً أختًا شقيقةً وأختًا لأبٍ وزوجًا فللأختِ الشقيقةِ النصفُ وللأختِ مِنَ الأبِ السُّدُسُ فلا يبقَى للزوجِ إلَّا الثلثُ بينما فَرْضُهُ هو النصفُ فقد ضاقتِ التركةُ عن الفروضِ فمَنْ قال بالعَوْلِ قال بأنَّ أصلَ المسئلةِ أنها مِنْ سِتَّةٍ فتَعُولُ إلى سبعةٍ فيأخذُ كُلٌّ مِنَ الزوجِ والشقيقةِ ثلاثةَ أسباعٍ وتأخذُ الأختُ للأبِ سُبُعًا (و) مسائلِ ميراثِ (**الجَدَّاتِ من**) مسائلِ (**الفرائضِ وغيرِ ذلكَ من**

الأحكامِ) فيها كميراثِ الجدّ معَ الإخوةِ **(وكالحرامِ)** أىْ قولِ الرّجلِ لامرأتهِ أنتِ حرامٌ علَىَّ **(والبائنِ)** أىْ قولهِ لَهَا أنتِ بائنٌ **(وألبتة)** أىْ كقولهِ لها أنتِ طالقٌ ألبتةَ **(و)**قولِهِ **(حَبْلُكِ على غارِبِكِ)** تشبيهًا لَهَا بالدّابةِ إذا وُضعَ الحبلُ على كتفِها ولم يُرْبَط بشىءٍ ثم أُرسلَتْ فِى المَرْعَى تذهبُ حيثُ تشاءُ **(وكالمسائلِ فِى الحدودِ)** كالتِى وَلَدَتْ لِستَّةِ أشهرٍ مِنَ النكاحِ **(والطَّلاقِ)** كالسكنى والنفقة للبائن وغيرِ ذلك **(مِمَّا يكثرُ ذِكرُها مِمَّا قد حدَثت فِى أيامهم ولم يَجِئْ فِى كلِّ واحدةٍ منها نصٌّ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لأنّه لو نصَّ على جميعِ ذلكَ ما اختلفوا فيها وما بَقِىَ الخلافُ إلى الآنَ وهذهِ المسائلُ)** معَ أنّها من أمورِ الشّريعةِ ومِنَ الأحكامِ الدِّينيَّةِ **(وإن لم يكنْ فِى كلِّ واحدةٍ منها نصٌّ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فإنّهم)** معَ ذلكَ **(ردّوها وقاسوها على ما فيهِ نصٌّ من كتابِ اللهِ تعالى والسّنّةِ و)**إجماعِ **(اجتهادِهم)** أىْ أنَّ الحادثةَ التِى لم يردْ فيها بعَينها نصٌّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لم يتركوها مهملةً من غيرِ تبيينِ حكمِها فِى الشَّرْعِ بل ردُّوها إلى القواعدِ التِى وضعها بالوَحْيِ نبىُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم وإلى الأُصُولِ التى أَصَّلَهَا وذلكَ للحاجةِ وهذا بعَينِهِ ما فعلهُ علماءُ أصولِ الدينِ حيثُ تكلموا فِى ما قامتِ الحاجةُ للكلامِ فيهِ مِمَّا حدثَ فِى أيّامهم على حسبِ الأصولِ الثابتةِ فِى الشّريعةِ، ولو كانَ هذا المنهجُ ممنوعًا أو مذمومًا لَمَا

نَهَجَهُ الصَّحابةُ باتِّفاقٍ منهم ثم التّابعونَ ثم أتباعُ التّابعينَ وهلمَّ جرًّا (**فهذهِ**) جادَّةٌ مستقيمةٌ يسلكها مَن وَفَّقَهُ اللهُ تباركَ وتعالى معَ لفتِ النّظرِ إلى أنَّ أحكامَ الفرائضِ والحدودِ والطّلاقِ الحادثةِ المتقدّمِ ذِكرُها هيَ (**أحكامُ حوادثِ الفروعِ**) وقد (**رَدُّوها إلى أحكامِ الشريعةِ**) المنصوصِ عليها (**التِي هيَ فروعٌ لا تُسْتَدْرَكُ أحكامُها**) أيْ لا يُوصلُ إليها (**إلا من جهةِ السَّمْعِ والرُّسُلِ**) ومعَ هذا فقد تجرّؤوا على قياسِ أحكامها بعقولِهِمْ على الأحكامِ الواردةِ المنصوصةِ وجازَ ذلكَ لِمَنْ تأهّلَ منهم ووصلَ إلى رتبةِ الاستنباطِ والاجتهادِ (**فأمّا حوادثُ تحدثُ فِي الأصولِ**) أي فِي أصولِ الدِّينِ (**فِي تعيينِ مسائلَ**) لم تردْ معيّنةً بنصِّها عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم (**فينبغِي لكلّ عاقلٍ مسلمٍ أن يُرُدَّ حكمَها إلى جملةِ الأصولِ**) العَقَديّةِ (**المتّفقِ عليها بالعقلِ والحسِّ والبديهةِ وغيرِ ذلكَ**) كصَرائحِ النُّصوصِ القرءانيّةِ والحديثيّةِ والإجماعِ القَطْعِيِّ وَفْقَ المَنْهَجِ الذِي تقدّمَ بيانهُ عنِ الصَّحَابةِ والتَّابعينَ (**لأنَّ حكمَ مسائلِ الشّرعِ التى طريقها السّمعُ أن تكونَ مردودةً إلى أصولِ الشّرعِ الذى طريقهُ السّمعُ**) فلا يُعتمدُ مثلًا على حكمِ العقلِ بأنَّ الجزءَ أصغرُ منَ الكُلِّ لِيُستنبطَ من ذلكَ حكمُ انتقاضِ الوضوءِ بمسِّ الفَرْجِ (**وحكمُ مسائلِ العقليّاتِ والمحسوساتِ أن يُرَدَّ كلُّ شَيْءٍ من ذلكَ إلى بابِهِ**) فيُستدلُّ على الحادثِ منها بما هوَ مُقرَّرٌ ومجتمَعٌ عليهِ من أصولِهَا على ما

سبقَ إيضاحهُ (**ولا تُخْلَطُ العقليّاتُ بالسّمعيّاتِ ولا السّمعيّاتُ بالعقليّاتِ**) فلا يَسْتَدِلُّ مثلًا على معتقِدِ التثليثِ إذا ناظرَهُ بقول الله تعالى فِى سورة المائدة ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ٧٣﴾ فإنَّ الخصمَ لا يؤمنُ بالقرءانِ حتى يعتبرَهُ حجّةً، وهكذا يُنَزِّلُ كلَّ أمرٍ مَنزلتَهُ، فإذا كلَّمَ الرَّافضىَّ الذِى لا يَرَى منزلةً لأبِى بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رَضِىَ الله عنهم لا يَستدلُّ فِى إبطالِ كلامِهِ بالأحاديثِ المَرْوِيَّةِ من طريقِهم، وإذا أوردَ المبتدعُ شبهةً استندَ فيها على العقلِ بزعمِهِ لم يَكْفِ فِى الغالبِ فى دفع ضررِهِ عنِ الناسِ أن يُرَدَّ عليهِ بمجرَّدِ إيرادِ ءايَةٍ أو حديثٍ لأنهُ يزعُمُ عندئذٍ معنًى للآيةِ على خلافِ معناها الحقيقيِّ أو يزعُمُ للحديثِ معنًى على خلافِ معناهُ الحقيقيِّ مستندًا على زعمِهِ فِى تأويلِهِ إلى ما أقامَ من دليلٍ عقليٍّ فإذا لم تُنقَض شبهتُه بالعقلِ وأحكامِهِ راجَت شبهتُهُ عندَ كثيرٍ منَ النّاسِ وانخدعوا بكلامِهِ فَضَلُّوا وهَلَكُوا وقد بَيَّنَ ذلك القاضِى أبو بكر ابن الباقلَّانِيِّ كما رَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ أنَّ المَلِكَ فَنَّاخُسْرُه ابنَ بُوَيْه طلبَ أنْ يُحضَرَ إلى مجلسِهِ مَنْ يَقومُ بحجةِ أهلِ السنةِ فسُمِّىَ له شيخٌ وشابٌّ من أهلِ البصرةِ أما الشيخ فأبو الحسن الباهِلِىُّ وأما الشابُّ فأبو بكرِ بنُ الباقلَّانِىُّ فأرسَلَ يدعوهما للحضور قال الباقلَّانِىُّ فَلَمَّا وصل الكتاب إلينا قَالَ الشَّيْخُ وَبَعضُ أصحابنا هَؤُلَاءِ القَوْمُ فَسَقَةٌ وَلَيْسَ غَرَضُ المَلِكِ من هَذَا إِلَّا أن يُقَالَ إِنَّ

مَجْلِسَهُ مُشْتَمِلٌ على أَصْحَابِ المَحَابِرِ كُلِّهِمْ وَلَو كَانَ ذَلِكَ لله عزَّ وجلَّ خَالِصًا لنهضتُ فَأنا لَا أحضرُ عِنْدَ قومٍ هَذِهِ صفتُهُمْ فَقَالَ القَاضِي كَذَا قَالَ ابْنُ كُلَّابٍ والمُحَاسِبِيُّ وَمَنْ كَانَ فِي عصرِهِما من المُتَكَلِّمين إِن المَأْمُونَ لَا نحضرُ مَجْلِسَهُ حَتَّى سَاقَ أَحْمَدَ إِلَى طَرَسُوسَ ثُمَّ مَاتَ المَأْمُونُ وردُّوهُ إِلَى المعتصمِ فامتحنه وضربَهُ وَهَـٰؤُلَاءِ أسلمُوهُ وَلَو مَرُّوا إِلَيْهِ ونَاظرُوهُ لكفُّوهُ عَن هَذَا الأَمر فَإِنَّهُ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ القَومَ لَيستْ لَهُم حجَّةٌ على دعاويهم فَلَوْ مَرُّوا إِلَيْهِ وبَيَّنُوا للمعتصمِ لارتدعَ المعتصمُ وَلَـٰكِنْ أسلمُوهُ فَجَرَى على أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا جَرَى وَأَنت أَيُّهَا الشَّيْخُ تَسْلُكُ سبيلَهُمْ حَتَّى يجْرِيَ على الفُقَهاء مَا جَرَى على أَحْمَدَ وَيَقُولُوا بِخَلْقِ القُرْءَان وَنفْيِ رُؤْيَة اللَّه تَعَالَى وَهَا أَنَا خَارِجٌ إِنْ لم تخرجْ قَالَ فَخَرَجْتُ مَعَ الرَّسُولِ نَحْوَ شِيرازَ فِي البَحْرِ حَتَّى وصلتُ إِلَيْهَا ثُمَّ ذكرَ من دُخُوله على المَلِكِ ومناظرَتِهِ مَعَ المُعْتَزِلَة وقطعِهِ إِيَّاهُمْ مَا ذَكَرَ قَالَ ثُمَّ دفعَ إِلَيْهِ المَلِكُ ابْنَهُ يُعَلِّمُهُ مَذْهَبَ أهلِ السُّنَّةِ وَأَلَّفَ لَهُ كتابَ التَّمْهِيدِ فَتعلقَ أهلُ السُّنَّةِ بِهِ تعلقًا شَدِيدًا اهـ ولذلك قال أبو الحسنِ رحمهُ الله **(فلو حدثَ فى أيامِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الكلامُ فى خلقِ القُرْءَانِ وفِي الجُزْءِ والطَّفرةِ بهذهِ الألفاظِ لتكلَّمَ فيهِ وبَيَّنَ)** بهذهِ الألفاظِ **(كما بَيَّنَ سائرَ ما حدثَ فى أيّامهِ من تَعْيينِ المسائلِ وتكلَّمَ فيها)** وقد سبقَتْ أمثلتها ⊙

وكُنْ على ذُكْرٍ أنَّ أصولَ هذهِ المسائلِ العقليّةِ قد بيَّنَها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كما ذكرَ الأشعرىُّ رَضِىَ الله عنه ءانِفًا وأوضحهُ وأنَّ علماءَ أهلِ السُّنَّةِ وإنْ رجعوا إلى حكم العقل فى العقليات على ما دَلَّهُمْ عليهِ القرءانُ فِى نحو قوله تعالى فِى سورة ءالِ عمرانَ ﴿لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وقولِهِ فِى سورةِ الحجّ ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ﴾ وقولِهِ فِى سورةِ المُلْكِ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ فإنهم مع ذلك جعلوا نصوص الشرع ميزانًا يزنون به ما أداهم إليه النظر العقلىُّ ليزدادوا تأكُّدًا من أيةِ نتيجةٍ عقليةٍ وصلوا إليها فيبحثوا عن الخطإ فيها إذا خالفتْ نصوصَ الشريعة فكان الشرع عندهم حارسًا للنظر يمنع من تطرق الخلل إليه وذلك لشهادة الشرع والعقل معًا أنَّ دينَ الله لا يأتِى إلا بمُجَوَّزاتِ العقلِ فلا يُؤَدِّى النَّظَرُ الصحيحُ إلى ما يخالف الدين ۝

قال الإمام أبو الحسن رحمه الله **(ثم يقال)** فِى زيادةِ الرَّدِّ على المخالفين **(النبىُّ صلى الله عليه وسلم لم يصحَّ عنه حديثٌ فِى أنَّ القرءانَ غير مخلوق أو هو مخلوق فَلِمَ قُلْتُمْ إنه غيرُ مخلوقٍ)** وتكلمتم فِى ذلك مرةً بعد مرة ونشرتموه وأشعتموه وناظرتم عليه وهذا بلا شكٍّ داخلٌ تحتَ علمِ الكلام **(فإن قالوا قد قاله بعض الصحابة وبعض التابعين قيل لَهُمْ يلزمُ الصحابىَّ والتابعىَّ مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعًا ضالا)** على حسب أصلكم

(إذ قال ما لم يقله الرسول صلى الله عليه وسلم) وهذا ظاهر جدًّا مبطل لكلامهم يُبَيِّنُ أنهم مُتَحَكِّمُونَ لا يَجْرُونَ على أصلٍ ولا قاعدةٍ **(فإن قال قائلٌ)** منهم **(فأنا أتوقف فِى ذلك فلا أقول مخلوق ولا غير مخلوق قيل له فأنت فِى توقفك فِى ذلك مبتدع ضالٌّ لأنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لم يقل إنْ حدثت هذه الحادثة بَعْدِى فتوقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئًا ولا قال ضَلِّلُوا وكَفِّرُوا مَنْ قال بِخَلْقِهِ أو مَنْ قال بِنَفْىِ خَلْقِهِ)** أىْ لم يتكلمْ تعيينًا فِى هذه المسألة فمعنَى كلام الإمام أبِى الحسن رحمه الله أنَّ القاعدةَ التِى قَعَّدَها المخالفون من أنه لا يجوز التكلم فِى ما لم يتكلمْ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَعْيِينًا تَحْكُمُ بضلالهم إذ إنهم قد تكلموا تَعْيِينًا فِى مسألةِ خَلْقِ القُرْءَانِ ولم يتكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يُنْجِى أحدَهُمْ مِنْ ذلك الحكمِ بحسب أصلهم أن يتوقفَ أيضًا عن الكلام فِى المسألةِ بأن يقول لا أحكُمُ بضلالِ من قال ذلك ولا بعدمِ ضلالِهِ لأنه فى قوله أنا متوقفٌ أو أنَّ الحكمَ التوقفُ يكون قد تكلم تعيينًا فِى ما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ لَمْ يَقُلْ عليه الصلاةُ والسلامُ مَنْ تكلَّمَ فِى القرءَانِ فتوقَّفُوا فِى أمرِهِ، فمرادُ الأشعرىِّ رحمه الله بيان شدة فساد القاعدةِ التِى قعَّدُوها فإنها تُؤَدِّى بمن يأخذ بها إلى أن يكون ضالًّا إذا حكمَ بحكمٍ فِى المسألةِ الحادثةِ وضالًّا إذا توقف عن الحكم وضالًّا إذا تكلَّمَ

وضالًّا إذا سكتَ فماذا يقول المنصف فِى قاعدةٍ هذا شأنُها.

قال الإمامُ أبو الحسن رحمه الله (**وخَبِّرُونا لو قال قائلٌ إنَّ عِلْمَ اللهِ مخلوقٌ أكنتم تتوقفون فيه أم لا فإنْ قالوا لا**) لسنا نتوقفُ فِى ذلك بل نحكمُ بكفرِهِ (**قيل لهم فلم يقل النبيُّ صلى الله عليه وسلم ولا أصحابُهُ فِى ذلك شيئًا**) فكيف تكلمتم وكَفَّرْتُمْ مَنْ يقولُ ذلك (**وكذلك لو قال قائل هذا ربكم شبعانُ**) من الطعام (**أو ريَّانُ**) من الماءِ (**أو مكتسٍ**) بالثياب (**أو عُرْيان**) من الكِسوة (**أو مقرور**) من البرد (**أو صفراوىٌّ**) غلبَتِ الصفراءُ على مزاجِهِ (**أو مرطوبٌ**) أو يابسٌ (**أو جسم**) مركَّبٌ (**أو عَرَضٌ**) أىْ صفةٌ (**أو يَشَمُّ الريح**) أيِ الرائحةَ (**أو لا يَشَمُّهَا أو هل له أنفٌ وقلبٌ وكبدٌ وطحالٌ وهل يحجُّ فِى كلِّ سنة**) وهل يسكن الكعبة فِى موسم الحج كما قاله بعض أهل عصرنا (**وهل يركب الخيل أو لا يركبها وهل يَغْتَمُّ**) أىْ يحزن (**أم لا**) وهل يبولُ فيكون المطر من بوله أو هل يُجامعُ فيكون الإمناءُ مِنْ جِماعِهِ كما صرَّحَ بهما بعض أهل عصرنا (**ونحو ذلك من المسائل لكان ينبغِى أنْ تسكتَ عنه**) على حسب مذهبك بالتوقف عما لم يَرِدْ نصًّا مُعَيَّنًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فِى شَىْءٍ من ذلك ولا أصحابُهُ أو كنتَ لا تسكتُ فكنتَ تُبيِّنُ بكلامك أنَّ شيئًا من ذلك لا يجوز على**

اللهِ عزَّ وجلَّ وتقدَّسَ) فتقول (بحجة كذا وكذا). قال رحمه الله (فإن قال قائل) فِى الجواب عن السؤال السابقِ (أَسْكُتُ عنه ولا أجيبُهُ بشَىْءٍ أو أهجرُهُ أو أقوم عنه أو لا أسلم عليه ولا أعوده إذا مرض ولا أشهد جنازته إذا مات) أو شيئًا من نحو ذلك (قيل له فيلزمك) أىْ عَلَى حَسَبِ مذهبِكَ (أن تكون فِى جميع هذه الصِّيَغِ التِى ذكرتَهَا مبتدعًا ضالًّا لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّمَ لم يقل من سأل عن شَىْءٍ من ذلك فاسكتوا عنه ولا قال لا تُسَلِّمُوا عليه ولا قوموا عنه ولا قال شيئًا من ذلك فأنتم مبتدعة إذا فعلتم ذلك) وأنتم تطلبون مِنَّا أن نفعل مثلَكُمْ فنسكتَ ولا نتكلم عند حدوث الحوادث فنكون مبتدعة مثلكم وهذا مِمَّا لا نقبلُهُ أبدًا (وَلِمَ) تَطْلُبُونَ منا السكوت وأنتم (لم تسكتوا عمن قال بخلق القرءان) بل كفَّرْتُمُوهُ (و) نحنُ نقولُ لَهُمْ أخبرونا (لِمَ كَفَّرْتُمُوهُ ولم يَرِدْ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم حديثٌ صحيحٌ فِى نَفْيِ خَلْقِهِ وتكفيرِ مَنْ قال بخلقه) وكلُّ ما ورد مرفوعًا فى هذا الشَّأْنِ فهو غيرُ ثابتٍ كما نصَّ عليه عدَّةٌ منهم الحافظُ البيهقىُّ فإنه قال فِى الأسماء والصفاتِ وَنُقِلَ إِلَيْنَا عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا القُرْءَانُ كَلامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَرُوِىَ ذَلِكَ أَيْضًا عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَرْفُوعًا وَلَا يَصِحُّ شَىْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَسَانِيدُهُ مُظْلِمَةٌ لَا يَنْبَغِى أَنْ يُحْتَجَّ بِشَىْءٍ مِنْهَا وَلَا أَنْ يُسْتَشْهَدَ بِشَىْءٍ مِنْهَا اهـ (فإنْ

قَالُوا) كَفَّرْنَاهُ (لأنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ رضى الله عنه قال بِنَفْيِ خلقِهِ وتكفيرِ مَنْ قالَ بِخَلْقِهِ) وهذا ثابتٌ عنهُ معروفٌ (قِيلَ لَهُمْ وَلِمَ لَمْ يسكتْ أحمدُ عن ذلك بل تكلم فيه) ولم يتكلمْ فيه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (فإن قالوا لأن العباس العنبرىّ ووكيعًا وعبدَ الرَّحمـٰنِ بنَ مَهدِيّ وفلانًا وفلانًا قالوا إنه غيرُ مخلوقٍ ومن قال بأنه مخلوقٌ فهو كافرٌ قِيلَ لَهُمْ وَلِمَ لَمْ يَسْكُتْ أُولـٰئِكَ عَمَّا سَكَتَ عنه رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وءَالِهِ وسَلَّمَ فإن قالوا لأنَّ عَمْرَو بْنَ دِينارٍ وسفيانَ بنَ عُيَيْنَةَ وجعفرَ بنَ محمدٍ) أيِ الصادقَ ابنَ الباقرِ (رَضِيَ الله عنهم وفلانًا وفلانًا قالوا ليس بخالقٍ ولا مخلوقٍ) أىْ أنَّ القرءَانَ هو كلامُ اللهِ وليس هو اللهَ فيكونَ خالقًا ولا هو غيرُ اللهِ فيكونَ مِنْ المخلوقاتِ بل هو صفةٌ مِنْ صفاتِ الحقِّ قائمةٌ بذاتِهِ تعالى (قيل لَهُم ولِمَ لَمْ يسكتْ أولئك عن هـٰذه المَقَالةِ ولَمْ يَقُلْهَا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فإنْ أحالوا ذلك على صحابِيّ أو جماعةٍ منهم كان ذلك مُكابرةً فإنه) معلومٌ أنه لَمْ يَقَعْ فِى الصَّدْرِ الأَوَّلِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ القُرْءَانَ مَخْلُوقٌ حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى إِنْكَارِهِ فَلَا يَثْبُتُ عَنْهُمْ شَىْءٌ مِنْ تكفيرِ القائلِ به لا عن أنسٍ رَضِىَ الله عنه ولا عن غيرِهِ كما سبقَ نقلُهُ عن نَصِّ الحافظِ البيهقِيّ فِى الأسماءِ والصفاتِ ولو فُرِضَ تَنَزُّلًا أنهم صادقونَ فِى نسبةِ ذلك للصحابةِ فإنَّ السؤالَ يبقَى موجَّهًا إليهم (يُقال لَهُمْ فَلِمَ لَمْ يَسكتوا عن ذلك ولم يتكلم فيه النبىُّ صلى

الله عليه وسلم ولا قال كَفِّرُوا قائلَهُ و)احكُمُوا بِرِدَّتِهِ فعندها (إنْ قالوا لا بُدَّ للعالم من الكلام فى الحادثة ليَعْلَمَ الجاهل حكمها قيل لَهُمْ فهذا الذِى أردناه منكم) وجَهِدْنَا أنْ تتركُوا المكابرةَ وتقولوه مِنَ الأولِ فإذا كانَ كذلكَ (فَلِمَ مَنَعْتُمُ الكلامَ) إطلاقًا ونَسبتمونا فِيه إلى الضلالةِ والبدعةِ وَلِمَ أردتُمْ أنْ نَسْكُتَ ولا نُبَيِّنَ الأحكامَ للجهلةِ (فأنتم إنْ شِئْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ) بما تَهْوَوْنَ ومتى أردتُمْ سواءٌ أَنَصَّ النبىُّ صلى الله عليه وسلم على ما تذكرونه أم لم ينصَّ عليه وسواءٌ أَسَبَقَ له كلامٌ تعيينًا فِى ما تقولون أم لا (حتى إذا) وُوجِهْتُمْ بالحقّ وأُقِيمتْ عليكم الحجةُ و(انقطعْتُمْ قُلْتُمْ نُهينا عنِ الكلامِ و)أردتُمْ مَنْعَ خصومكم من أهل الحق من إظهارِ حججهم ومنعَ الناسِ من الاستماعِ إليهم فنسبتموهم إلى البدعة بكلامِهِمْ وأنتُمْ (إنْ شئتم قَلَّدْتُمْ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ بلا حُجَّةٍ) من عقلٍ (ولا بيانٍ) مِنْ نَصِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسألة المُعَيَّنَةِ على خلافِ ما تطالبوننا (وهـٰذِهِ شهوةٌ وتحكُّمٌ) وتناقضٌ وتهافتٌ وخروج عن منهج السلف الذين تزعمون أنكم تتبعونهم فإنهم طالما تكلموا فِى مسائل لم ينصَّ عليها تعيينًا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عند الحاجة لذلك وكُتُبُكُمْ فضلًا عن كتبِ أهلِ السُّنَّةِ طافحةٌ بذلك.

قال الإمام الأشعرىُّ رحمه الله (ثم يقال لهم فالنبىُّ صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فِى) كثيرٍ مِنَ المسائل الحادثة فِى

(النُّذُورِ والوَصَايَا) فإنه لم يتكلَّمْ فِيما لو نذرَ الإمامُ أن يستسقِىَ مثلًا وقد تكلموا فيه (ولا) تكلم (فى) كثير من مسائل (**العِتْقِ**) كمسألةِ ما لو أعتقَ فِى ردته عبدًا وهم فعلُوا (**ولا فِى حسابِ المُنَاسَخَاتِ**) وهو ما لو ماتَ الوارثُ قبل أن تُقسَمَ تركةُ الميّتِ الذِى ورثَ منه وتُفْرَزَ له حصَّتُهُ منها (**ولا صَنَّفَ فيها**) أىْ فِى المسائلِ الحادثاتِ ولا فِى جمعِ أبوابِهَا (**كتابًا كما صَنَعَهُ مالكٌ**) فِى الموطَّإِ (**والثورىُّ**) فِى الجامع (**والشافعىُّ**) فِى الأمّ (**وأبُو حنيفةَ**) فِى ما أملاهُ على طُلَّابِهِ فجمعُوهُ وكما فَعَلَ أمثالُهُمْ مِنْ كِبَارِ الأَئِمَةِ رَضِىَ اللهُ عنهم كأحمدَ وأبِى يوسفَ ومحمدِ بنِ الحَسَنِ ومحمدِ بنِ جريرِ الطبريِّ وتبعهم فِى ذلك ما لا يُحصَى من فقهاءِ المذاهبِ (**فيلزمكم**) على حسب أصلكم الذِى أصَّلْتُموهُ وقاعدتكم التِى أحدثتموها (**أن يكونوا**) كلُّهُمْ (**مبتدعةً ضُلَّالًا إذْ فعلوا ما لم يفعله النبىُّ صلى الله عليه وسلم وقالوا ما لم يَقُلْهُ نصًّا بعينه وصنفوا ما لم يصنفه النبىُّ صلى الله عليه وسلم**) بل يلزمكم أن تكونوا مبتدعةً ضُلَّالًا حيث قرأْتُمْ كتبهم أو أقرأتموها أو حفظتُمْ أقوالَهُمْ فِى ذلكَ وبَلَّغْتُمُوهَا (و)هم أىِ الأئمةُ المتقدّمُ ذِكْرُهُمْ قد (**قالوا بتكفيرِ القائلينَ بخلقِ القُرْءَانِ ولم يَقُلْهُ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم**) تعيينًا كما تقدم فيلزمكم تضليلُهُمْ بهذا أيضًا وكفى بِهِ جهلًا وفسادَ قلبٍ (**وفيما ذكرنا كفايةٌ لكلِّ عاقلٍ**) منصف (**غيرِ معاندٍ**) ◉

قال الناسخُ رحمه الله تعالى (**نجز والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وءَالِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ**) ۝

وقال الشارحُ غَفَرَ اللهُ لَهُ للهِ دَرُّ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ فإنه أَبْدَى فِي هذه الرسالةِ الصغيرةِ فِي حَجْمِهَا الوجيزةِ فِي لفظِها ضروبًا من حُجَجِ العقلِ المُلْزِمَةِ واستنبطَ من النصوصِ قواعدَ وأحكامًا جَلَّاها فازدانتْ واضحةً وبيَّنها فتمثَّلَتْ جليةً ومع ذلك فلا يَنتبِهُ إليها ولا يُفلِحُ فِي استخراجها إلا من أعطاه اللهُ مثلَ عقلِ وقريحةِ وفَهْمِ أبي الحسن وأمدَّهُ ربُّهُ بمثلِ ما أمدَّهُ وحَسْبُكَ ما استخرجه من قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ وقوله ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ومن حديثِ نَزْعِ العِرقِ وحديثِ لا عدوى من القواعدِ الكلاميةِ فإنه يكفِي فِي إنبائكَ عن ذلك ۝ وأبدَى كذٰلك مع هذا علاماتِ معرفةٍ تامةٍ بالفقهِ وما هو المُسْتَنْبَطُ منه وما هو المنقولُ وعلاماتِ درايةٍ مَتينةٍ بالحديثِ وما هو الثابتُ من مرويَّاته وما هو غيرُ الثابتِ كلُّ ذلكَ بسلاسةٍ فِي التعبيرِ ووضوحٍ فِي العبارةِ وقوةٍ فِي الدليلِ بحيثُ يتكلَّمُ السُّنّيُّ فِي هذا المبحثِ وهو فاهمٌ لِمَا يقولُ عارفٌ بموضعِ الحُجَّةِ متيقِّنٌ منها واثقٌ مِنْ مَتَانَتِهَا وصحةِ عبارتها ومن انقطاعِ خصمِهِ وانقماعِ معارِضِهِ ومعانِدِهِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ مجرَّدَ ناقلٍ لا يَفقَهُ أو مُحَاكٍ لا يَعْقِلُ وهذا إنما يكشِفُ لنا عن نُبْذَةٍ أو شذرةٍ من فضائلِ الإمامِ عليِّ بنِ إسمٰعيلَ الأشعريِّ ومناقبِهِ

التِي أَكْسَبَتْهُ بِحَقٍّ لقبَ إمامِ أهلِ السنةِ رحمَهُ اللهُ وغفرَ له ورفعَ فِي الفردوسِ مَرْتَبَتَهُ ۝ ءَامِين ۝

ووُجِدَ فِي ءَاخِرِ نسخةِ الرسالةِ المَحفوظةِ فِي مجموعٍ من مجاميع مكتبة فيضِ اللهِ أفندِي فِي تركية بخطِّ الناسخِ (ءَاخِرُهُ والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءَالِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ وبِعَقِبِهِ ما صورتُهُ سمعتُ جميعَهُ بقراءَتِي على الشيخِ المحدِّثِ أبِي صادقٍ محمد بن الحافظ الرشيد أبِي الحسينِ يَحْيَى بنِ عَلِيِّ بنِ عبد الله بن مفرج القرشِيِّ وفقَهُ اللهُ تعالى ورحمَ سَلَفَهُ بمنزِلِهِ بمصرَ . كتبَهُ عبد الرحمـٰنِ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عِمرانَ فِي ربيعِ الأولِ سنةَ ٦٧٧ حامدًا مُصَلِّيًا) اهـ واللهُ تعالى أعلمُ ۝

تَمَّ فِي مدينةِ بيروتَ حاضرةِ الغربِ مِنْ جبلِ لبنانَ

فِي شهرِ رجبٍ مِنْ سنةِ ثمانٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ

ثم أُعيد النظرُ فيه فتمَّ فِي طرابلس الشام حفظها الله فِي المحرم مِن سنة تسع وثلاثين واللهُ المُوَفِّقُ ولهُ فِي ذلكَ الحمدُ والمِنَّةُ ۝

وكتبَ سميرُ بنُ سَامِي ابنُ القاضِي غفر الله له ۝

مَتنُ رسالةِ
اسْتِحْسَانِ الخَوْضِ فِي علمِ الكلامِ

للإمامِ
أبِي الحسنِ عليِّ بنِ إسمٰعيل الأشعريِّ
رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ وصَلَّى اللهُ على محمدٍ النَّبيِّ وءالِهِ الطَّيِّبينَ وأصحابِهِ الأئمَّةِ المُنْتَخَبينَ ۝

أما بعدُ فإنَّ طائفةً منَ الناسِ جَعَلُوا الجهلَ رأسَ مالِهِمْ وثَقُلَ عليهمُ النظرُ والبحثُ عنْ الدينِ ومَالُوا إلى التَّخفيفِ و التقليدِ وطَعَنُوا على مَنْ فتَّشَ عنْ أصولِ الدِّينِ ونسبوهُ إلى الضلالِ وزعموا أنَّ الكلامَ فِى الحركةِ والسكونِ والجِسْمِ والعَرَضِ والألوانِ والأكوانِ والجُزْءِ والطفرةِ وصفاتِ البارئِ عزَّ وجلَّ بدعةٌ وضلالةٌ ولو كانَ ذلكَ هدًى ورشادًا لتكلم فيه النبىُّ صلى الله عليه وسلم وخلفاؤُهُ وأصحابُهُ قالوا ولأنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى تكلم فى كل ما يُحتاج إليه من أمور الدين وبينه بيانًا شافيًا ولم يترك بعده لأحد مقالًا فيما للمسلمين إليه حاجةٌ من أمور دينهم وما يقربهم إلى الله عز وجل ويباعدهم عن سخطه فلما لم يَرْوُوا عنه الكلام فِى شَىْءٍ مِمَّا ذكرناه علمنا أنَّ الكلام فيه بدعةٌ والبحثَ عنه ضلالةٌ لأنه لو كان خيرًا لَمَا فاتَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ ولتكلموا فيه قالوا ولأنه ليس يخلو ذلك من وجهينِ إمَّا أن يكونوا عَلِمُوهُ فسكتُوا عنه أو لم يعلموه بل جهلُوهُ فإن كانوا علمُوهُ ولم يتكلموا فيه

وَسِعَنَا أيضًا نحن السكوتُ عنه كما وسعهم السكوتُ عنه وَوَسِعَنا تركُ الخوض كما وسعهم ترك الخوض فيه ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوتُ عنه وإنْ كانوا لم يعلموه وَسِعَنَا جهلُهُ كما وسع أولئك جهلُهُ لأنه لو كان من الدين لم يجهلوه فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة والخوض فيه ضلالة فهذِهِ جملةُ ما احتجوا بِهِ فى تركِ النظرِ فى الأصولِ قَالَ الشيخُ أبو الحسنِ رضىَ اللهُ عنهُ الجوابُ عنهُ من ثلاثةِ أوجهٍ أحدُها قلبُ السؤالِ عليهم بأن يقالَ النبىُّ صَلَّى الله عليه وسلم لم يَقُلْ إنهُ مَنْ بحثَ عن ذلكَ وتكلمَ فيهِ فاجعلوهُ مبتدعًا ضالًّا فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعةً ضلالًا إذ قد تكلمتم فِى شَىْءٍ لم يتكلمْ فيه النبىُّ صلى الله عليه وسلم وضَلَّلْتُمْ مَنْ لم يُضَلِّلْهُ النبىُّ صلى الله عليه وسلم ⊙

الجوابُ الثانِى أن يقال لَهُمْ إنَّ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئًا مِمَّا ذكرتموه مِنْ الكلام فِى الجسم والعرض والحركة والسكون والجُزْءِ والطفرة وإن لم يتكلمْ فِى كلِّ واحد من ذلك مُعَيَّنًا وكذلك الفقهاءُ والعلماءُ مِن الصحابةِ غيرَ أنَّ هٰذِهِ الأشياءَ التِى ذكرتموها مُعَيَّنَةً أصولُهَا موجودةٌ فِى القرءانِ والسُّنَّةِ جملةً غيرَ مفصَّلةٍ فأما الحركة والسكون والكلامُ فيهما فأصلُهُما موجودٌ فِى القُرْءَانِ والسُّنَّةِ وهُما يَدُلَّانِ على التَّوحيدِ وكذلكَ الاجتماعُ والافتراقُ قال الله تعالى مخبرًا عن خليلِهِ إبراهيمَ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ فى قصةِ أُفولِ الكوكبِ

والشمسِ والقمرِ وتحريكِها من مكانٍ إلى مكانٍ ما دلَّ على أنَّ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ لا يجوزُ عليهِ شَيْءٌ منْ ذلكَ وأنَّ مَن جازَ عليهِ الأُفُولُ والانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ فليس بإلٰهٍ وأمَّا الكلامُ فِي أصولِ التوحيدِ فمأخوذٌ أيضًا منَ الكتابِ قالَ اللهُ تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وهذا الكلامُ موجزٌ مُنَبِّهٌ على الحُجَّةِ بأنهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ وكلامُ المتكلمينَ في الحِجاجِ فِي التوحيدِ بالتمانعِ والتغالبِ فإنَّما مرجعُهُ إلى هذهِ الآيةِ و قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [و] إلى قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ ﴾ وكلامُ المُتكَلِمِين فِي الحجاج فِي توحيد الله إنما مرجعه إلى هٰذه الآيات التِي ذكرناها ⊙

فكذلك سائر الكلام فِي تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القُرْءَانِ فكذٰلك الكلام فِي جواز البعث واستحالته الذِي قد اختلف عقلاء العرب ومن قبلهم من غيرهم حتى تَعَجَّبُوا مِن جواز ذلك فقالوا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ وقولُهُمْ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ وقولُهُمْ ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ وقولُهُ تعالى ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ فِي نحو هذا الكلامِ منهم إنما وَرَدَ

بالحجاج فِى جواز البعث بعد الموت فِى القُرْءَانِ تأكيدًا لجواز ذلك فِى العقول وعَلَّمَ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم ولَقَّنَهُ الحِجَاجَ عليهم فِى إنكارِهِمُ البعثَ من وجهين على طائفتينِ منهم طائفة أقرتْ بالخَلْقِ الأول وأنكرتِ الثانِىَ وطائفة جحدتْ ذٰلك وقالتْ بقدم العالم فاحتج على المُقِرِّ منها بالخَلْقِ الأول بقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَهُوَ﴾ وبقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وبقوله ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فَنَبَّهَهُمْ بهذه الآياتِ على أنَّ من قدر أنْ يفعلَ فعلًا على غيرِ مثالٍ سابقٍ فهو أَقْدَرُ أنْ يفعلَ فعلًا مُحْدَثًا فهو أهونُ عليه فِى ما بينكم وتَعَارُفِكُمْ فأمَّا البارئُ جلَّ ثناؤُهُ وتقدسَتْ أسماؤه فليس خَلْقُ شَىْءٍ بأهونَ عليه من الآخر وقد قيلَ إنَّ الهاءَ فِى أهون عليه إنما هِىَ كنايةٌ للخَلْقِ بقدرته إنَّ البعثَ والإعادة أهونُ على أحدكم وأخفُّ عليه من ابتداءِ خلقه لأنَّ ابتداءَ خَلْقِهِ إنما يكون بالولادة والتربية وقطع السرة والقِمَاطِ وخروجِ الأسنانِ وغيرِ ذلك من الآيات المُوجِعَةِ المُؤْلِمَةِ وإعادته إنما تكون دفعةً واحدةً ليس فيها من ذلك شَىْءٌ فهو أهونُ عليه من ابتدائِهِ فهذا ما احتجَّ به على الطائفة المقرة بالخَلْقِ الأول ۝

وأمَّا الطائفة التِى أنكرتِ الخلق الأول والثانِىَ وقالتْ بقدم العالم فإنما دخلت عليهم شبهةٌ بأن قالوا وجدنا الحياة رطبةً حارةً والموتَ باردًا يابسًا وهو مِنْ طَبْعِ الترابِ فكيف يجوز أن

يُجمعَ بين الحياةِ والتراب والعظام النَّخِرَةِ فيصيرَ خلقًا سويًا والضدانِ لا يجتمعان فأنكروا البعث من هذه الجهة ولَعَمْرِى إن الضِّدَّيْنِ لا يجتمعان فى محلٍّ واحدٍ ولا على الجملة ولا فِى الموجود فِى المَحَلِّ ولكنه يصحُّ وجودُهُما فِى محلين على سبيل المجاورة فاحتجَّ اللهُ تعالى عليهم بأن قال ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فَرَدَّهُمُ الله عزَّ وجلَّ فِى ذلك إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرِّها ويُبْسِهَا من الشجر الأخضر على بَرْدِها ورُطوبتها فَجَعَلَ جوازَ النشأة الأولى دليلًا على جواز النشأة الآخرة لأنها دليلٌ على جوازِ مجاورةِ الحياةِ الترابَ والعظامَ النَّخِرَةَ فيجعلها[1] خَلقًا سويًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ ⊙

وأما ما يتكلم به المتكلمون من أنَّ للحوادثِ أَوَّلًا وردُّهُم على الدَّهريةِ أَنَّهُ لا حركةَ إلا وقبلها حركةٌ ولا يومَ إلا وقبله يومٌ والكلامُ على من قال ما مِن جُزْءٍ إلا وله نصفٌ لا إلى غاية فقد وَجَدْنَا أَصْلَ ذلك فِى سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسَلَّمَ حين قال لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ فقال أعرابِىٌّ فما بالُ الإبلِ كأنها الظِّبَاءُ تدخلُ فِى الإبلِ الجَرْبَى فتجربُ فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم فمن أعدَى الأولَ فسكت الأعرابىُّ لَمَّا أفحمه بالحجة المعقولة ⊙

---

(١) قوله (فيجعلها) أنسبُ للسياقِ وأمَّا فِى النسخةِ الخطيةِ فالمُثْبَتُ (فجعلها). سمير.

وكذلك نقول لِمَنْ زعم أنه لا حركةَ إلا وقبلها حركةٌ لو كان الأمرُ هكذا لم تَحدثْ منها واحدةٌ لأن ما لا نهاية له لا حَدَثَ لَهُ وكذلك لَمَّا قال الرجلُ يا نبيَّ الله إنَّ امرأتِى ولدتْ غلامًا أسود وعَرَّضَ بِنَفْيِهِ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل فقال نعم قال فما ألوانها قال حُمْر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فيها من أورق قال نعم إنَّ فيها وُرْقًا قال فأنَّى ذلك قال لعلَّ عرقًا نَزَعَهُ فقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ولعلَّ وَلَدَكَ نَزَعَهُ عِرْقٌ فهذا ما عَلَّمَ اللهُ نبيَّهُ مِنْ رَدِّ الشَّىْءِ إلى شَكْلِهِ ونظيرِهِ وهو أصلٌ لنا فِى سائرِ ما نَحكُمُ به من الشبيهِ والنَّظِيرِ وبذلك نحتجُّ على مَنْ قال إنَّ الله تعالى وتقدَّسَ يُشْبِهُ المخلوقاتِ وهو جسمٌ بأن نقول له لو كان يُشبه شيئًا مِن الأشياءِ لكانَ لا يخلو من أن يكونَ يُشبهه من كلِّ جهاته أو يُشبهه من بعضِ جهاته فإنْ كان يشبهُهُ مِن كلِّ جهاته وجب أن يكون مُحْدَثًا مِنْ كلِّ جهاته وإن كانَ يشبهه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثًا مثلها من حيثُ أَشْبَهَهُ لأنَّ كلَّ مُشْتَبِهَيْنِ حكمُهُمَا واحدٌ فِى ما اشتبها له ويستحيل أن يكون المحدَثُ قديمًا والقديمُ محدَثًا وقد قال تعالى وتقدس ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وقال تعالى وتَقَدَّسَ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ ۝

وأما الأصل بأنَّ للجسمِ نهايةً وأنَّ الجُزْءَ لا ينقسم فقوله عز وجلَّ اسْمُهُ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ومحالٌ إحصاء ما لا نهايةَ له ومحالٌ أنْ يكونَ الشَّيْءُ الواحدُ ينقسم لأن هذا يوجب أنْ يكونا شيئين وقد أخبر أنَّ العددَ وقعَ عليهما ۞

وأما الأصلُ فِى أنَّ المُحْدِثَ للعالَمِ يجب أنْ يَتَأَتَّـى له الفعل نحوَ قَصدِهِ واختيارِهِ و تَنْتَفِيَ عنه كراهتُهُ فقوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فلم يستطيعوا أنْ يقولوا بحجةٍ إنهم يخلقون مع تَمَنِّيهِم الولدَ فلا يكونُ مع كراهيَتِهِ له فنَبَّهَهُمْ أنَّ الخالق هو من يتأتَّى منه المخلوقات على قَصْدِهِ ۞

وأما أصلُنا فِى المناقضة على الخصم فِى النَّظَرِ فمأخوذٌ من سنةِ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك تعليم الله عزَّ وجَلَّ إياه حين لَقِيَ الحبرَ السمينَ فقال له نشدتك بالله هل تجد فيما أنزل الله تعالى من التوراة أنَّ اللهَ تعالى يُبْغِضُ الحبرَ السمينَ فغضب الحبرُ حين عَيَّرَهُ بذلك فقال ما أنزل الله على بشرٍ مِنْ شَيْءٍ فقال الله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ الآيَةَ فناقضه عن قُرْبٍ لأن التوراة شَيْءٌ وموسى بشر وقد كان الحبرُ مُقِرًّا بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى وكذلك ناقض الذين زعموا أنَّ الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول

حتى يأتيهم بقربان تأكله النار فقال تعالى ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فناقضهم بذلك وحاجَّهُمْ ۝

وأما أصلنا فِى استدراكِنا مغالطةَ الخصوم فمأخوذٌ من قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ فإنها لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ بلغ ذلك عبدَ الله بن الزِّبَعْرَى وكان جَدِلًا خَصِمًا فقالَ خصمتُ محمدًا وربِّ الكعبة فجاء إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ألستَ تزعم أنَّ عيسى وعزيرًا والملائكة [عبادٌ صالحون فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة وهذه النصارى تعبد عيسى عليه السلام وهذه اليهود تعبد عُزَيْرًا هل عيسى وعُزير والملائكةُ][1] حصبُ جهنَّمَ فَسَكَتَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم لا سكوتَ عِيٍّ ولا منقطعٍ تعجبًا مِنْ جَهْلِهِ لأنه ليسَ فِى الآيةِ ما يُوجِبُ دخولَ عيسى وعزيرٍ والملائكةِ فيها لأنه قال وما تعبدون ولم يَقُلْ وكلَّ ما تَعْبُدُونَ مِن دونِ اللهِ وإنما أراد ابن الزِّبَعْرَى مغالطةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لِيُوهِمَ قَوْمَهُ أَنَّهُ قد حاجَّهُ فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ يعنى من

(1) ما بين المعقوفتين مَمْحُوٌّ مِن النسخة الخطيةِ ولكنَّ السياقَ يدُلُّ عليه فهو مثبتٌ بالتقديرِ مِنِّى لا بالحرفِ كما هو فى الأصلِ المخطوط. سمير.

المعبود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ فقرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك فضجوا عند ذلك لِئَلَّا يتبين انقطاعهم وغلطهم فقالوا ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعنون عيسى فأنزل الله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ إلى قوله ﴿خَصِمُونَ﴾ ۝

وكل ما ذكرناه مِنَ الآيِ أو لم نَذْكُرْهُ أصلٌ لنا وحجةٌ لنا فِى الكلام فيما نذكره مِن تفصيلٍ وإنْ لَمْ تَكُنْ كلُّ مسألةٍ معينةً فِى الكتاب والسنة لأنَّ ما حدث تعيينها من المسائل العقليات فِى أيامِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم والصحابةِ قَدْ تكلَّمْنَا فيه ۝

والجوابُ الثالثُ أنَّ هٰذه المسائلَ التِى سألوا عنها قد علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجهل منها شيئًا مفصَّلًا غير أنها لم تحدث فى أيامه مُعَيَّنَةً فيتكلمَ فيها أو لا يتكلمَ فيها وإنْ كانتْ أُصُولُهَا موجودةً فِى القرءانِ والسُّنَّةِ وما حَدَثَ مِنْ شَىْءٍ فيما لهُ تَعَلُّقٌ بالدِّينِ من جهةِ الشّريعةِ فقد تَكَلَّمُوا فيهِ وبحثوا عنهُ وناظروا فيهِ وجادلوا وحاجُّوا كمسائلِ العَولِ والجَدَّاتِ من الفرائضِ وغيرِ ذلكَ منَ الأحكامِ وكالحرامِ والبائنِ وألبتة وحَبْلُكِ على غارِبِكِ وكالمسائلِ فِى الحدودِ والطَّلاقِ مِمَّا يكثرُ ذِكرُها مِمَّا قد حدَثت فِى أيامهم ولم يَجِئْ فِى كلِّ واحدةٍ منها نصٌّ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لأَنَّه لو نصَّ على جميعِ

ذلكَ ما اختلفوا فيها وما بَقِىَ الخلافُ إلى الآنَ وهذهِ المسائلُ وإن لم يكنْ فِى كلِّ واحدةٍ منها نصٌّ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فإنّهم ردّوها وقاسوها على ما فيهِ نصٌّ من كتابِ اللهِ تعالى والسّنّةِ واجتهادِهم فهذهِ أحكامُ حوادثِ الفروعِ ردُّوها إلى أحكامِ الشريعةِ التِى هىَ فروعٌ لا تُسْتَدْرَكُ أحكامُها إلا من جهةِ السَّمْعِ والرُّسُلِ فأمَّا حوادثُ تحدثُ فِى الأصولِ فِى تعيينِ مسائلَ فينبغِى لكلِّ عاقلٍ مسلمٍ أن يرُدَّ حكمَها إلى جملةِ الأصولِ المتّفقِ عليها بالعقلِ والحسِّ والبديهةِ وغيرِ ذلكَ لأنَّ حكمَ مسائلِ الشّرعِ التى طريقها السّمعُ أن تكونَ مردودةً إلى أصولِ الشّرعِ الذى طريقهُ السّمعُ وحكمَ مسائلِ العقليّاتِ والمحسوساتِ أن يُرَدَّ كلُّ شَىْءٍ من ذلكَ إلى بابِهِ ولا تُخْلَطُ العقليّاتُ بالسّمعيّاتِ ولا السّمعيّاتُ بالعقليّاتِ فلو حدثَ فى أيامِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الكلامُ فى خلقِ القُرْءَانِ وفِى الجُزْءِ والطَّفرةِ بهذهِ الألفاظِ لتكلَّمَ فيهِ وبَيَّنَ كما بَيَّنَ سائرَ ما حدثَ فى أيّامهِ من تَعْيينِ المسائلِ وتكلَّمَ فيها ۞

ثم يقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم لم يصحَّ عنه حديثٌ فِى أنَّ القرءانَ غير مخلوق أو هو مخلوق فَلِمَ قُلْتُمْ إنه غيرُ مخلوقٍ فإن قالوا قد قاله بعض الصحابة وبعض التابعين قيل لَهُمْ يلزمُ الصحابىَّ والتابعىَّ مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعًا ضالًّا إذ قال ما لم يقله الرسول صلى الله عليه وسلم فإن قال قائلٌ فأنا

أتوقف فِى ذلك فلا أقول مخلوق ولا غير مخلوق قيل له فأنت فِى توقفك فِى ذلك مبتدع ضالٌّ لأنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لم يقل إنْ حدثت هذه الحادثة بَعْدِى فتوقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئًا ولا قال ضَلِّلُوا وكَفِّرُوا مَنْ قال بِخَلْقِهِ أو مَنْ قال بِنَفْيِ خَلْقِهِ وخَبِّرُونا لو قال قائلٌ إنَّ عِلْمَ اللهِ مخلوقٌ أكنتم تتوقفون فيه أم لا فإنْ قالوا لا قيل لهم فلم يقل النبىُّ صلى الله عليه وسلم ولا أصحابُهُ فِى ذلك شيئًا وكذلك لو قال قائل هذا ربكم شبعانُ أو ريَّانُ أو مكتسٍ أو عُرْيان أو مقرور أو صفراوىٌّ أو مرطوبٌ أو جسم أو عَرَضٌ أو يَشَمُّ الريح أو لا يَشَمُّهَا أو هل له أنفٌ وقلبٌ وكبدٌ وطحالٌ وهل يحجُّ فِى كلِّ سنة وهل يركب الخيل أو لا يركبها وهل يَغْتَمُّ أم لا ونحو ذلك من المسائل لكان ينبغِى أنْ تسكتَ عنه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فِى شَىْءٍ من ذلك ولا أصحابُهُ أو كنتَ لا تسكتُ فكنتَ تُبَيِّنُ بكلامك أنَّ شيئًا من ذلك لا يجوز على الله عزَّ وجلَّ وتقدَّسَ بحجة كذا وكذا. فإن قال قائل أَسْكُتُ عنه ولا أجيبُهُ بشَىْءٍ أو أهجرُهُ أو أقوم عنه أو لا أسلم عليه ولا أعوده إذا مرض ولا أشهد جنازته إذا مات قيل له فيلزمك أن تكون فِى جميع هذه الصِّيَغِ التِى ذكرتَهَا مبتدعًا ضالًّا لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّمَ لم يقل من سأل عن شَىْءٍ من ذلك فاسكتوا عنه ولا قال لا تُسَلِّمُوا عليه ولا قوموا عنه ولا قال شيئًا من ذلك فأنتم

مبتدعة إذا فعلتم ذلك وَلِمَ لم تسكتوا عمن قال بخلق القرءان ولِمَ كَفَّرْتُمُوهُ ولم يَرِدْ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم حديثٌ صحيحٌ فِي نَفْيِ خَلْقِهِ وتكفيرِ مَنْ قال بخلقه فإنْ قَالُوا لأنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ رضى الله عنه قال بِنَفْيِ خلقِهِ وتكفيرِ مَنْ قالَ بِخَلْقِهِ قِيلَ لَهُمْ ولِمَ لَمْ يسكتْ أحمدُ عن ذلك بل تكلم فيه فإن قالوا لأن العباس العنبرىّ ووكيعًا وعبدَ الرَّحمـٰنِ بنَ مَهْدِيٍّ وفلانًا وفلانًا قالوا إنه غيرُ مخلوقٍ ومن قال بأنه مخلوقٌ فهو كافرٌ قِيلَ لَهُمْ ولِمَ لَمْ يَسْكُتْ أُولـٰئِكَ عَمَّا سَكَتَ عنه رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وءَالِهِ وسَلَّمَ فإن قالوا لأنَّ عَمْرَو بْنَ دِينارٍ وسفيانَ بنَ عُيَيْنَةَ وجعفرَ بنَ محمدٍ رَضِيَ الله عنهم وفلانًا وفلانًا قالوا ليس بخالقٍ ولا مخلوقٍ قيل لَهُم ولِمَ لَمْ يسكتْ أولئك عن هـٰذه المَقَالَةِ ولَمْ يَقُلْهَا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فإنْ أحالوا ذلك على صحابِيٍّ أو جماعةٍ منهم كان ذلك مُكابرةً فإنه يُقال لَهُمْ فَلِمَ لَمْ يَسكتوا عن ذلك ولم يتكلم فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ولا قال كَفِّرُوا قائلَهُ وإنْ قالوا لا بُدَّ للعالم من الكلام فى الحادثة ليَعْلَمَ الجاهل حكمها قيل لَهُمْ فهذا الذِى أردناه منكم فَلِمَ مَنَعْتُمُ الكلامَ فأنتم إنْ شِئْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ حتى إذا انقطعْتُمْ قُلْتُمْ نُهِينَا عنِ الكلامِ وإنْ شئتم قَلَّدْتُمْ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ بلا حُجَّةٍ ولا بيانٍ وهـٰذِهِ شهوةٌ وتحكُّمٌ ۝

ثم يقال لهم فالنبىُّ صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فِى النُّذُورِ والوَصَايَا ولا فى العِتْقِ ولا فِى حسابِ المُنَاسَخَاتِ ولا صَنَّفَ فيها كتابًا كما صَنَعَهُ مالكٌ والثورىُّ والشافعىُّ وأَبُو حنيفةَ فيلزمكم أن يكونوا مبتدعةً ضُلَّالًا إذْ فعلوا ما لم يفعله النبىُّ صلى الله عليه وسلم وقالوا ما لم يَقُلْهُ نصًّا بعينه وصنفوا ما لم يصنفه النبىُّ صلى الله عليه وسلم وقالوا بتكفيرِ القائلينَ بخلقِ القُرْءَانِ ولم يَقُلْهُ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم وفى ما ذكرنا كفايةٌ لكلِّ عاقلٍ غيرِ معاندٍ.

نجز والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وءَالِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ.

فهرست

إيضاح المرام من رسالة الأشعري الإمام